

الحياة والموت

فضيلة الشيخ:
محمد متولى الشعراوى

رئيس مجلس الإدارة:
إبراهيم سعده

الفصل الأول



ما هى البدايــة ؟

ما من قضية أخذت جدلا بين الناس مثل قضية الموت والحياة . وما من قضية تدخل فيها العلماء بعلم كاذب مثل قضية الموت والحياة ! ذلك أن الموت غيب عنا ، وكل غيب نحن نأخذ أخباره وخصائصه عن الله سبحانه وتعالى ، لأنه مادام غير مشهود فهو لا يدخل فى علم الإنسان يقينا . وإن كان يدخل ظنا أو توهما . . مما يعرضه لكمية هائلة من الأكاذيب غير الصحيحة .

وهذا ما أوقع العلماء منذ ـ بداية الخلق ـ فى التخبط والحيرة ، بل والتناقض . فمنهم من قال بنظرية التطور . وأن الإنسان أصله قرد اسمه لوسى (!) .

ونقول لهؤلاء المفترين : من الذى أخبركم بذلك ؟! نحن لم نعرف فى سجلات التاريخ التى روت لنا الأحداث فى العالم منذ قديم الزمان ، ان هناك قرداً قد تحول إلى إنسان ! وهل تحول هذا القرد إلى إنسان ثم بعد ذلك توقف عن هذا التحول.أم ماذا حدث ؟ ثم هل تحول هذا القرد إلى إنسان ذكر أم إنسان أنثى ؟! فإن كان قد تحول إلى ذكر فإنه ينقرض ، وإن كان قد تحول إلى أنثى فإنها تنقرض أيضا . . وأين هو الدليل الذى استندوا إليه فى هذا الحكم ؟!

لقد تقدمت العلوم وارتقت البحوث فى جميع المجالات فيما لا يقاس بإمكانات الزمن الماضى . . وأصبحت التكنولوجيا

سمة العصر الحديث .. ومع ذلك فإننا مازلنا نتحداكم بالدليل الذى يثبت زعمكم .. أرونا كيف يتحول القرد إلى إنسان ؟!

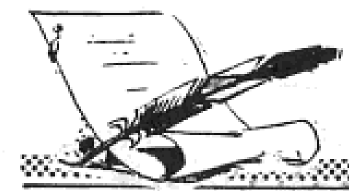
لقد أخبرنا الله سبحانه وتعالى عن مثل هذه الخرافات فى كتابه العزيز وحذرنا منها . فقال سبحانه :

﴿ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾ ﴾

(سورة الكهف)

إن الله سبحانه أخبرنا أنه سيأتى مضلون . وأنهم سيتحدثون عن خلق السموات والأرض وخلق الناس وكيف تم ؟ وهؤلاء المضلون كلامهم كله مقصود به إضلال الناس . فهم لم يشهدوا خلق السموات والأرض . ولم يشهدوا خلق أنفسهم حتى يتحدثوا عن علم .

إن مجىء هؤلاء المضلين الذين يقولون إن الإنسان أصله قرد . والذين يتحدثون عن نظريات علمية لخلق الإنسان . مجىء هؤلاء جاء تثبيتاً لقضية الإيمان فى الكون . لأنهم لو لم يأتوا ويضلوا ، لقلنا إن الله سبحانه وتعالى أخبرنا فى القرآن الكريم أنه سيأتى من يضل ، ويقول لنا إن السماء والأرض خلقتا بطريقة ما ، وأن الإنسان خلق بشكل ما ، ولم يأتوا . إذن فمجيئهم ضرورة لتثبيت الإيمان .



جدل عقيم .. وسفسطة

لقد حارت البشرية كذلك فى قضية فلسفية تافهة لا يملكون لها دليلا . وهى أيها وجد أولا . . البيضة أم الفرخة ؟! لقد ثار جدل عقيم لا طائل من ورائه حول هذا الموضوع . وظهرت مدارس تعقبها مدارس . . ونقول لكل هؤلاء : لماذا هذه السفسطة ؟ إن الله سبحانه وتعالى قد أراحنا ودلنا على بداية الخلق فقال سبحانه :

﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾

(سورة الذاريات)

معنى ذلك ـ ونحن نأخذ العلم عن الله تعالى ـ أنه لا يمكن أن يستمر خلق إلا من ذكر وأنثى . وأن هذا الجدل العقيم وهذا اللغو العلمى (إن صح هذا التعبير) لا يؤدى إلى شىء . لأن الله سبحانه أخبرنا أنه خلق من كل شىء زوجين . وأنه إذا لم يوجد الديك الذى يخصب البيضة داخل « رحم » الدجاجة . . لظلت البيضة صماء لا تعطينا شيئا . .

لقد شاءت إرادة الله سبحانه وتعالى أن تكون مراحل الخلق أربعاً . . كل مرحلة منها تعتبر إظهارا لإعجاز الله وقدرته التى لا تعرف حدودا . . ولا تحدها قيود . لقد كان آدم عليه السلام هو أول خلق الإنسان . . يدل على ذلك قول الحق جل

وعلا فى قوله تعالى :

﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ ﴾

(سورة ص)

هذه هى بداية الخلق كما أخبرنا بها الله سبحانه وتعالى . ومع النفخة فى آدم ـ التى هى من روح الله ـ وجد فى ظهر آدم عليه السلام كل ذريته حتى يوم القيامة على هيئة مخلوقات غاية فى الدقة مكتوبا عليها بشفرة إلهية كل الصفات التى ستكون فى الإنسان . . هذا الخلق هو الذى أخبرنا به المولى عز وجل فى القرآن الكريم بقوله :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

بعض الناس يتساءل : ما علاقتى أنا بآدم بعد هذه القرون الطويلة ؟ ونقول لمن يتساءل : إن فيك قبسا من نفخة الله فى آدم . هو الذى أعطاك الحياة . يقول كيف ؟ نقول إن الحياة سلسلة متصلة . . إذا انقطعت انتهت . لقد أتيت نتيجة حيوان حى من والدك ، ولولا وجود هذا الأب ، ما كنت قد

والدك . ووالدك حى عن حياة سبقت هى حياة جدك . وجدت أنت . إذن فأنت حى عن حياة سبقت هى حياة وجدك أيضا حى عن حياة سابقة وهكذا . . لتتصل سلسلة الحياة حتى نصل إلى آدم . فآدم لو لم يكن حيا ، لما وجد أولاده ، فأولاده أخذوا الحياة من ميكروب حى فى ظهر آدم ، ومن حياة آدم أخذ أولاده الحياة وأعطوها لأولادهم .

وهكذا مضت الحياة كما شاء لها الله حتى وصلت إلينا وإلى أولادنا وأحفادنا حتى قيام الساعة .



فى عالم الذر .. كانت المشاهدة

لقد أشهد الله جميع خلقه على نفسه منذ البداية ولم يتخلف عن تلك المشاهدة مخلوق سابق أو لاحق ، ولولا هذه المشاهدة لما استطاع إنسان أن يستوعب قضية الإيمان بالغيب وفى قمتها الإيمان بوجود إله . . لماذا ؟ لأن العقل الإنسانى لا يمكنه إدراك مدلول الأسماء المجردة إلا بالرؤية .

إنك لن تعرف معنى الجبل إلا إذا رأيته أو صعدته . ولا تعرف معنى البحيرة إلا إذا شهدتها أو رأيت صورة لها . والله سبحانه لم يشهده إنسان ولا يتسع له عقل . ومع ذلك فإنك حين يذكر اسم الله ، فإنك لا تجد صعوبة فى إدراك المعنى ، وأنه تلك القوة الكبرى التى خلقت وأوجدت وأعطت ورزقت . وحين تتعبد لله تحس بالصفاء يملأ قلبك . هذا كله يعنى أن الله أشهدنا على نفسه فى عالم الذر عند خلق آدم . وأننا نعرف أنه موجود ومُوجِدُ كل شىء . وهذا ما نسميه الفطرة الإيمانية .

إننا نولد وفينا فطرة الإيمان التى تملأ نفوسنا وقلوبنا . فتجذبنا إلى الخالق الأعلى . وفطرة الإيمان هذه موجود فى كل مولود يخبرنا عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله :

« كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه » (أى يجعلانه مجوسيا) .



صور الخلق

نعود بعد ذلك إلى صور الخلق من الله تعالى وهى أربع :

خلق بدون ذكر وأنثى أى من الله سبحانه وتعالى مباشرة بدون الأسباب . وهذا هو خلق آدم .

وخلق من ذكر بدون أنثى وهذا هو خلق حواء . خلقت من ضلع آدم . كما أخبرنا بذلك القرآن الكريم فى قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾

(من الآية الأولى من سورة النساء)

وخلق من ذكر وأنثى وهو الذى يتم بمشيئة الله سبحانه وتعالى وبالأسباب .

والأسباب هنا هى وجود الذكر والأنثى . ولكن طلاقة قدرة الله سبحانه وتعالى . شاءت ألا تجعل الأسباب تعمل وحدها . بل هى تعمل بإرادة المسبب . ولذلك قد يتزوج الرجل والمرأة . وتتوافر الأسباب التى توجد الإنجاب ، ومع ذلك لا يحدث ولا تأتى ذرية . لأن مشيئة الله فوق الأسباب . واقرأ

قوله سبحانه :

﴿ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ ﴾

(سورة الشورى)

حتى نعلم أنه حتى مع وجود الأسباب المتمثلة فى الذكر والأنثى لا يحدث التكاثر إلا بالمشيئة الإلهية وبطلاقة قدرة الله فيجتمع الذكر والأنثى ولا يتم الإنجاب . لأنه ليس عملية ميكانيكية بشرية الأسباب . ولكن فوق كل الأسباب تعلو مشيئة المسبب .

واستكمالا لصور الخلق تأتى الصورة الرابعة وهى خلق عيسى عليه السلام بن مريم من أنثى بدون ذكر . لتتم به معجزات الخلق الأربعة . ليصبح الخلق بدون ذكر وأنثى ، ومن ذكر دون أنثى ، ومن اجتماع الإثنين . ومن أنثى دون ذكر .

هذه هى صور الخلق .

الله سبحانه وتعالى أوجد مرحلتين فى خلقه هما الموت والحياة . فالحياة خلق لله سبحانه وتعالى . وكذلك الموت خلق الله .

يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾

(من الآية ٢ سورة الملك)

إن كل مرحلة من هاتين المرحلتين : الموت أو الحياة . لها قوانينها التى تحكمها . ونحن لا نعرف من هذه القوانين إلا ما أخبرنا به الله تبارك وتعالى وهو أقل القليل . ولكننا ـ مع ذلك ـ نحكم بأقل القليل هذا حكما عاما !

وبعض الناس يجزم أنه ليس هناك فى الكون إلا ما نراه فى حياة اليقظة ، مع أن هذا الشخص الذى يقول هذا الكلام يُتَوَفَّى وُيُرَدُّ إلى الحياة كل يوم ، وينتقل من قانون إلى قانون فى ثانية ، ودون أن يدرى . يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾

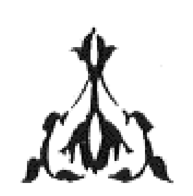
(من الآية ٤٢ سورة الزمر)

قوانين .. للموت والحياة

الإنسان عندما ينام ينتقل من قانون إلى قانون . فهو فى حالة اليقظة ، تحكمه قوانين محددة . . إنه يرى الأشياء المادية . ويمضى فى حركة الحياة بعقله . ذلك هو العالَم المُشَاهد للإنسان . العالم الذى نعرفه جميعا . وتشترك فيه البشرية كلها . لكن عندما ننام . . نصبح فى عالم آخر ، لا يخضع للعقل ولا للمنطق ولا لمشاهد الدنيا . فنحن نخرج من الزمن . فلا يحس الإنسان بالوقت وهو نائم . لذلك إذا لم يلجأ إلى آلات قياس الوقت أو إلى الظواهر الطبيعية ، كأن يكون قد نام نهاراً ثم أظلمت الدنيا ، أو نام ليلا ثم جاء ضوء الشمس . لو لم يلجأ إلى هذه الأشياء ، فإنه لا يعرف الوقت الذى قضاه فى النوم .

فالنوم يجعل الإنسان خارجا عن نطاق هذه الدنيا لا يحس بها ولا يعرف شيئا عنها ، منفصلا تماماً ، وكما هو منفصل عن أحداث الدنيا ، فإنه أيضا منفصل عن قوانينها . إنه يرى - فى الأحلام - وعيناه مغمضتان ، ويجرى وقدماه فوق السرير لا تتحركان . ويسقط من فوق جبل عال فلا يصاب بشىء ، ويرى نفسه وهو يطير فى الهواء أو تخسف به الأرض . ويحس وهو نائم ، فقد يبكى وقد يضحك ، وقد يأتيه كابوس يجعله يصدر أصواتاً مزعجة . أو يقوم من نومه فزعا .

إنه أثناء النوم لا يخضع لقوانين العقل ولا المنطق ولا القوانين التي تحكمنا في عالم المشاهدة . فإذا قلت لإنسان مثلاً أنك ذهبت إلى أمريكا وعدت عشرين مرة في ليلة واحدة ، هل يملك أن يكذبك ؟ الجواب لا . وإذا قلت له انك في منامك قد تحدثت إلى فلان وفلان اللذين انتقلا إلى رحمة الله منذ فترة طويلة ، أيمكن أن يكذبك ؟ الجواب لا .



ما هى قوانين النـــوم



إن الإنسان فى فترات نومه ـ كما قلنا ـ يخضع لقوانين لا يمكن أن يصل إليها العلم لقد اتفق الناس على إخراج ما يراه الإنسان وهو نائم من قوانين الجدل . فلا يناقشك إنسان فيها مهما إشتطت ومهما توغلت فى دائرة اللا معقول .

لقد حاولت المدارس النفسية المختلفة أن تجد تفسيراً لما يراه الإنسان وهو نائم ، ولكنها فشلت جميعا رغم كل ما يقال عن علم النفس . فكل ما أتى به ـ هذا العلم ـ فى هذا الشأن ما هو إلا مجرد تخمينات وظن لا يصل إلى الحقيقة .

إن العلم يقول : إن أقصى مدة يشتغل فيها العقل أثناء النوم تساوى سبع عشرة ثانية . . ومع ذلك فإن الإنسان يرى أحلاما ـ لكى يرويها ـ قد يحتاج إلى ساعة أو أكثر .

هذا الانتقال من قانون إلى قانون يحدث لكل منا . والله سبحانه وتعالى رحمة بعقول عباده أراد أن يعلموا أن الإنسان حين ينام . ينتقل إلى عالم الموت وعند اليقظة يرد الله سبحانه وتعالى روحه إليه . لماذا ؟ حتى يعرف الإنسان أنه من الممكن أن ينتقل من قانون إلى قانون . فإذا قيل لإنسان أنه فى الآخرة سيخلد . نعلم أنه سوف يخضع لقوانين أخرى . ولا نتعجب !

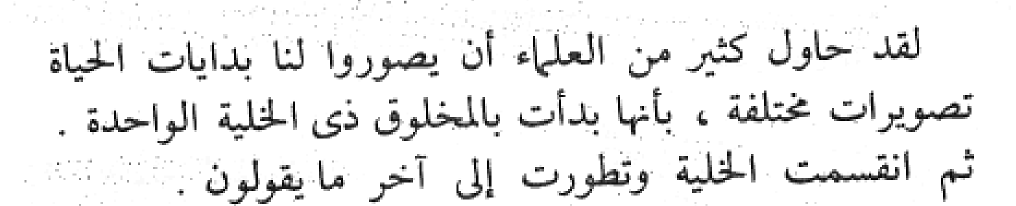
كيف يمكن للإنسان أن يخلد ؟ لأن هذه حياة لها قوانينها التى تسرى على الإنسان .

إذن إنتقال كل منا من قانون إلى قانون آخر . يتم كل ليلة . ودون أن نشعر . ثم نعود بعد ذلك بقدرة الله تعالى إلى القانون الأول الذى يحكمنا ساعة اليقظة . ثم ننام فننتقل إلى قانون آخر .

ولا أعتقد أن أحدا من الذين يَدَّعُون العلم ، يستطيع أن يخبرنا ما هى القوانين التى يخضع لها الإنسان ساعة النوم ، ولا كيف يرى وهو مغمض العينين ؟ ويجرى وقدماه لا تتحركان . ويسافر ولم يبارح مكانه ؟!

إذن هناك ملكات أخرى فى الإنسان لا نعرفها هى التى تعمل أثناء النوم . وهناك قوانين لا نعرفها ينتقل الإنسان خلالها فى رحلة العمر .





بدايات الحياة

لقد حاول كثير من العلماء أن يصوروا لنا بدايات الحياة تصويرات مختلفة ، بأنها بدأت بالمخلوق ذى الخلية الواحدة . ثم انقسمت الخلية وتطورت إلى آخر ما يقولون .

ونقول لهؤلاء : إننا لا نأخذ الحياة إلا عن خالقنا . فخالق الشىء هو الذى يستطيع أن يخبرنا عنه . والله سبحانه وتعالى ـ وهو الذى خلق ـ أخبرنا أنه خلق الإنسان من طين الأرض . ولقد استطاع العلم الحديث الذى كشفه الله لخلقه أن يثبت أن هذا الطين مكون من ثمانية عشر عنصراً . وجدوها كلها فى جسد الإنسان .

وقد تتفاوت نسب هذه العناصر .. فتجد فى بعض الأجساد الحديد أقل أو المغنسيوم أقل ، أو الكالسيوم مثلا ، وعندما يتبين للإنسان ذلك ـ بوسائل التحليل الحديثة ـ يذهب إلى الطبيب فيعيطه من العلاج ما يعوض به ذلك النقص فى عناصره . ولكن العناصر ـ الثمانية عشرة ـ تبقى كما هى ثمانية عشر عنصراً فى كل جسد .

الله سبحانه وتعالى أخبرنا انه خلق الإنسان من طين ، ومن صلصال من حمأ مسنون .

وذلك فى قوله تبارك وتعالى :

﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ ﴾

(سورة ص)

وقوله تعالى :

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾

(سورة الحجر)

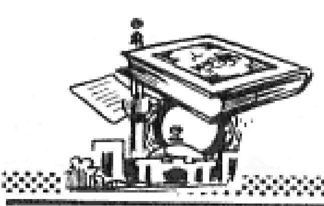
وهكذا حدد لنا الله سبحانه وتعالى عناصر جسد الإنسان ومراحل الخلق . والله سبحانه رحيم بعقولنا ، لذلك عندما تأتى قضية غيبية يعطينا من المظاهر المشهودة ما يقرب المعنى الى عقولنا .

نحن لم نشهد الخلق ، ولكننا نشهد كل يوم الموت . ذلك أمر مشهود لدينا . ونقض أى شيء عكس بنائه . فأنت حين تبنى عمارة مثلا تبدأ بالدور الأول حتى الدور الأخير ، وحين تهدمها تبدأ بالدور الأخير ، وحين تذهب الى الاسكندرية . فإن آخر ما نصل إليه هو الاسكندرية . فإذا أردت أن تعود ، فإن أول ما تغادره هو مدينة الاسكندرية . . إذن الموت عكس الحياة لأنه نقض لها .

إن آخر ما دخل فى الإنسان ـ كما أخبرنا الله تعالى ـ هو الروح . وهى أيضا أول ما تغادر الجسد ، ثم بعد ذلك يتصلب الإنسان فيصبح كالحمأ المسنون متصلبا . ثم يتعفن الجسد فيصبح كالصلصال ، ثم ينفصل الماء عن الطين ، الماء ينزل إلى الأرض . والطين يصبح ترابا . هذه هى الحقيقة التى ذكرها القرآن الكريم . والتى يأتى الموت شاهدا عليها .

الإنسان يريد أن يعرف ما هو الموت ؟ نقول له إعرف أولا ما هى الحياة . فالذى يعطى الحياة للجسد هو الروح . والروح مخلوق فى داخلك . ولكنها غيب عنك . أنت لا تعرف الروح بهيئتها أو بشكلها وإنما تعرفها بآثارها . لأنها هى التى تعطيك الحس وتعطيك الحياة .





ولكن أين هى الروح ؟ هل هى فى عقلك الذى يفكر ؟ أم فى يدك التى تبطش بها ؟ أم فى قلبك الذى ينبض بالحياة ؟ أم فى قدمك التى تمشى بها ؟

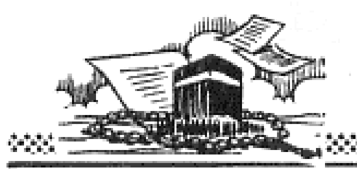
أين هى وما شكلها ؟ لا أحد يعرف .

فإذا كنت لا تعرف سر مخلوق من مخلوقات الله يعيش فى جسدك . . فهل تستطيع أن تعرف سر الخلق كله ؟ هذا مستحيل . .

إننا نرجو أن تحل المشكلة أولا فى نفسك وفى ذاتك ، قبل أن تصدر حكما على البشرية كلها . ولكنك إذا كنت قد فشلت فى أن تعرف سرًّا من أسرار خلق الله وضعه فى جسدك ، فهل تستطيع أن تعرف أسرار الله فى كونه ؟ الجواب هو لن تستطيع . ولكن الإنسان يكابر ويحاول أن يفتى فيما لا يدخل فى اختصاصات العقل البشرى .

إن العقل البشرى له حدود . ومهمته أن يختار بين البدائل فى الحياة ، وأن يميز بين الخبيث والطيب . إنه أداة الاختيار التى يميز بها الإنسان لأنه خلق مختارا . هذا العقل لا يستطيع الإنسان أن يتجاوز به ما جعله الله غيباً .

الوجود .. وإدراك الوجود



لقد أتعب الفلاسفة عقولهم فى محاولة الوصول إلى ما وراء المادة . ولكنهم لم يتوقفوا لحظة واحدة ليتساءلوا من الذى قال لهم إن هناك شيئا فوق المادة . فطرة الإنسان الإيمانية قالت هذا . لأنها تعرف وتحس أن هناك أشياء وراء المادة . ولكن هل يمكن الوصول إليها بالعقل البشرى ؟

الجواب لا . إلا إذا أراد الله تعالى أن يكشف لخلقه سرًا من أسرار كونه . لأن الله تعالى يكشف لخلقه فى كل جيل سرًا من أسرار هذا الكون لم تكن البشرية تعرفه . فإذا صادف هذا السر عالم يبحث عنه . . كشفه الله له وإذا لم يصادفه عالم . . كشفه الله لنا بما نسميه نحن قانون المصادفة . . وقانون المصادفة هذا قانون خيالى لا وجود له إلا فى عقل البشر .

إن هذا الكون بأقداره وأحداثه الصغيرة والكبيرة مرتب من الله تعالى حدثا وراء حدث لا يغيب عن علمه شىء مهما صغر . ولا يقع فى كونه شىء إلا بإذنه . بل إنه من العظمة أن الله سبحانه وتعالى سجل كل أحداث الكون من بداية الخلق إلى يوم القيامة . فى كتاب من قبل أن يتم الخلق . وإقرأ قوله سبحانه فى كتابه الكريم :

﴿ مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا ﴾

(من الآية ٢٢ سورة الحديد)

وقوله تعالى :

﴿ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

وكون الله سبحانه وتعالى سجل كل أحداث الكون ، فمعنى ذلك أنه لا يوجد شيء اسمه المصادفة . ولكن كل شيء يتم بترتيب دقيق . وبنظام بديع . ولذلك فلا شيء يحدث بالمصادفة . إنما نحن ـ لأننا عجزنا عن إدراك أسرار الوجود ـ نطلق على الأحداث أنها تتم بطريق المصادفة .

حقيقة أن الله سبحانه وتعالى يكشف للعقل من أسرار الكون بالتدريج مما لم نكن نعرفه ، ولكنه كان موجودا قبل أن نعرفه ، ولذلك فإن هناك فرقا بين الوجود . وبين إدراك الوجود . فملايين الأشياء موجودة حولنا تؤدى مهمتها فى الحياة . ولكننا ـ وإن كنا ننتفع بها ـ لا ندرك وجودها . لقد شاء الله تعالى أن يعلمنا أن هناك ملايين الأشياء تؤدى وظيفتها فى الكون وإن لم نكن نعرفها ، وأن عدم علمنا بها لا يعنى أنها غير موجودة .

ونوجز ما فصلناه فى هذا الفصل فنقول : إن الله سبحانه وتعالى . جعل الحياة من ذكر وأنثى . فمن كل شيء خلق الله زوجين . وأن التكاثر لا يتم بنوع واحد . وانما يتم بالنوعين . وأن طلاقة القدرة لا تقيدها الأسباب .

ثم بينا أن الحياة سلسلة متصلة منذ آدم إلى يوم القيامة . تنتقل من إنسان حى إلى إنسان حى . فإذا أدركها الموت توقفت .

ثم بينا أن الإنسان لا يمكن أن يصل إلى سر الحياة أو بداية الخلق وكيف تم . لأنه لم يشهد هذا . وإذا كان الإنسان قد فشل فى أن يعرف سرا من أسرار جسده ـ وهو الروح ـ فكيف يريد أن يعرف السر فى خلق الكون كله .

إن الله سبحانه وتعالى لم يجعل العقل أداة لمعرفة سر الحياة . بل ان العقل يتدبر فى آيات الله فى كونه . ليعلم يقينا أن الله تعالى هو الذى خلق هذا الكون . فإذا جاءه رسول يحمل منهج الله . فكان من الواجب أن يستقبل هذا الرسول بالإيمان . ولكنه استقبله بالكفر والعياذ بالله .

ونحن حين نريد أن نعرف سر الحياة وسر الموت فلابد أن نأخذ ذلك عن الله الذى خلق الموت والحياة . وأننا فى كل يوم ننتقل من الحياة إلى الموت عندما ننام ، ومن الموت إلى الحياة عندما نستيقظ . ولكننا لا نلتفت إلى ذلك لغفلتنا وقصورنا .

وأن الإنسان يخضع على الأقل لقانونين فى حياته . قانون اليقظة وقانون النوم .

ولكن ما هى الحياة ؟ هذا ما سوف نتناوله ـ بإذن الله وعونه ـ فى الفصل التالى .



الفصل الثانى



ما هى الحيــاة ؟

فى محاولتنا لمعرفة معنى الحياة . . يجب أن نعلم أن الله سبحانه وتعالى لم يقصر الحياة على الإنسان والجان وحدهما ، بل إن الحياة تمتد فى كل رقعة فى هذا الكون . نحن نأخذ الحياة على أنها الحس والحركة . . والحقيقة أن الحياة هى أن يؤدى كل شىء مهمته فى هذا الكون . .

نحن نقول إن الإنسان حى لأنه يتحرك ويمشى ويتكلم . ونقول إن الحيوان حى لأنه يتحرك وفيه حس . ونقول إن النبات حى لأنه يتنفس . أما باقى الكون فنحن نعتقد أنه غير حى . وهذا غير صحيح . كيف ؟!

إن مفهوم الحياة فى هذا الكون يختلف عن مفهومنا تماما . فأجناس الكون أربعة : هى الجماد والنبات والحيوان والإنسان . وكل جنس من هذه الأجناس يخدم الآخر . ويتوقف عند خصائصه .

فالجماد ـ على سبيل المثال ـ يخدم النبات والحيوان والإنسان . وآخر خصائصه هى النمو ، إن هذا تجده فى الشعب المرجانية فى البحار ، إنها تنمو رغم أن الجماد ليس له صفة النمو . ولكن كل جنس من أجناس الكون ، له ترقيات تتوقف وتنتهى عند بداية خصائص الجنس الآخر التالى له . الجماد يتوقف فى رقيه عند خصائص النمو ، وهذه أول خاصية بالنسبة للنبات . فالنبات يبدأ بالنمو ويتوقف عند الحس .

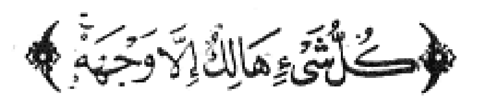
فيوجد نبات يحس . مثل (الست المستحية) كما يسميها أولاد البلد . وهى زهرة إذا اقتربت منها بإصبعك ضمت أوراقها .

والحيوان يبدأ بالحس ويرتقى فيه حتى مبادىء العقل ، التى تتكون فيه غريزيا . فنجد أن بعض أنواع القردة الراقية ، تستطيع أن تقلد الإنسان ولكن بلا فهم ولا توريث .

إن فى استطاعة الإنسان أن يدرب الحيوان على القيام بألعاب فيها نوع من الفكر البدائى ، ولكن هذه المهارات - بالنسبة للحيوانات - لا تورث . بمعنى أن القرد الذى تعلم القفز من فوق الحواجز ، لا يلد قرداً يفعل ذلك دون تدريب ، مما يؤكد لنا أن كل الأعمال التى تقوم بها الحيوانات المدربة ، إنما هى أشياء مهارية ، اكتسابيه فردية .

يأتى بعد ذلك الإنسان الذى هو سيد هذا الكون الذى ميزه الله سبحانه وتعالى بالعقل . ليتدبر فى كون الله . ويعقل آيات الله ويتبع منهجه سبحانه وتعالى .

نحن ننظر إلى الجماد على أنه ليس فيه حياة وحركة ، ولا نلتفت إلى أن مهمته فى الحياة تقتضى ذلك . إننا إذا تدبرنا قول الحق تبارك وتعالى فى كتابه العزيز الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه :



(من الآية ٨٨ سورة القصص)

ندرك عن يقين أن كل ما يطلق عليه شيء فى هذا الكون سيهلك يوم ينفخ فى الصور . ومادام الله سبحانه قال (كل شيء) سيصبح هالكا . إذن (فكل شيء) فيه حياة . لأن الهلاك ـ كما قلنا ـ هو عكس الحياة أو مقابلها . وإقرأ قوله سبحانه .

﴿ لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ ﴾

(من الآية ٤٢ سورة الأنفال)

إن هذه الآية الكريمة تدلنا على أن الهلاك مقابل للحياة . فإذا قال الله سبحانه وتعالى : « كل شيء هالك » فمعنى ذلك أن (كل شيء) كان حيًّا سوف يهلك إلا وجه الله سبحانه .



نحن نتحدث عن الحياة على أساس أنها حس وحركة . لأننا نقيس ذلك على أنفسنا نحن . لكن يجب أن تقاس (الحياة) على أساس مهمة كل شيء فى هذا الكون . فالجماد له حياة تناسبه . والنبات له حياة تناسبه . والحيوان له حياة تناسبه . لكى تبقى حقيقة لا لبس فيها ولا جدال . . هى أن هذه الأشياء مسبحة لله سبحانه وتعالى وذلك مصداقا لقوله تعالى :

﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَـٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَـٰبِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ (٣٨) ﴾

(سورة الأنعام)

وقوله سبحانه :

﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَـٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾

(من الآية ٤٤ سورة الإسراء)

ولنبدأ بالجماد . . إن له حياته التى تلائم مهمته . وإن كنا لا نفهمها . إننا نرى الجماد أمامنا ساكنا لا يتحرك . ولكن هل هذه حقيقته ؟!

لقد كانوا ـ ونحن فى المدرسة ـ يعملوننا كيف نمغنط الحديد أى نجعل منه مغناطيسا . وكنا نأتى بأنبوبة فيها برادة الحديد ثم

نأتى بمغناطيس ونمر عليها فى اتجاه واحد . فنجد أن البرادة قد غيرت حركتها وانتظمت صفا واحداً وأصبحت ممغنطة . هذه العملية التى تحركت فيها جزئيات الحديد تتم فى كل قضيب حديد نمر عليه بمغناطيس فى إتجاه واحد . هذه العملية البسيطة التى لاحظناها فى (برادة الحديد) هى نفسها التى تحدث عندما نمرز مغناطيسا على قضيب من حديد وإن كنا لا نلاحظها بسبب كتلة الحديد وتمساكها .



الجماد يبكى .. ويسمع ويتكلم

إذن هناك حركة فى الجماد لا تلحظها العين ولا نعرف عنها شيئا . ولكنها تتم ليؤدى الجماد مهمته فى الحياة ككائن حى وليس كجماد ميت . نحن نقول إن الجماد لا حياة فيه . ولكن هذا الجماد الذى ندّعى أنه لا حياة فيه . له عواطف ولكننا لا نعرفها . وإقرأ قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾

(سورة الدخان)

إن الأرض والسماء لهما عواطف . وهما تبكيان وربما تضحكان . وإن كنا لا ندرك ذلك ونظن أنها جامدة لا تحس ولا تبكى . والأرض والسماء لهما آذان يسمعان كلام الله ويفهمانه ويردان عليه . كما يخبرنا بذلك رب العزة سبحانه وتعالى فى كتابه العزيز :

﴿ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ ﴾

(سورة فصلت)

لقد توجه الله بكلامه إلى السماء والأرض ففهمتا مراده عز وجل وتكلمتا بلغة لا يعلمها إلا الله ، وإذا كان الأمر

كذلك . . فلا يحق لنا أن نقول الأرض صماء والسماء كذلك . بل إن الأرض لها ما يشبه الأذن تسمع بها وتستجيب . واقرأ قوله تعالى :

﴿ إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ۝١ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۝٢ وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ ۝٣ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ۝٤ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۝٥ ﴾

(سورة الانشقاق)

ما معنى أذنت ؟

معناها أنها سمعت بأذنها . أى أن السماء لها أذن تسمع بها . والأرض لها أذن تسمع بها . فإذا قال الله لهما سمعتا وأجابتا . كل هذا لا نعلم عنه نحن شيئا .

كذلك بيّن الله لنا أن فى هذا الجماد عاطفة وخشية لله أكثر من عاطفة وخشية قلب الإنسان . يقول الله سبحانه :

﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ﴾

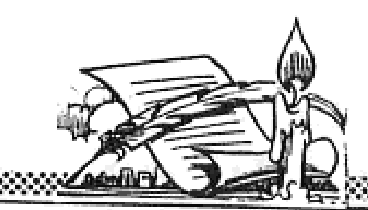
(من الآية ٧٤ سورة البقرة)

وهكذا نرى أن للجهاد ألوانا من الحياة ذكر بعضها فى القرآن الكريم ، وكنا لا نعرف عنها شيئا . وجاء بعضها فى أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الحصى وهو يسبح بين يديه . وكانت الجبال تسبح مع داود عليه السلام . وفى ذلك يقول القرآن الكريم :

﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ ﴾

(من الآية ٧٩ سورة الأنبياء)





والنبـات أيضـا

وإذا انتقلنا من الجماد إلى النبات نجد أن فيه حياة . وأنه مسبح ذاكر لله . وقصة جذع النخلة الذى كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخطب وظهره مستند إليه قصة مشهورة عندما جعلوا له منبراً . لقد أصدر هذا الجذع أنينا حزنا على فراق النبى صلى الله عليه وسلم له . إن هذا يدل على إحساس وشعور للنبات وإن كنا لا نعرف لغته . والنخلة التى قبلت يد رسول الله صلى الله عليه وسلم هى إحدى معجزاته العديدة . .

إن ذلك يعطينا صورة للحياة عند النبات لا نعرفها . فنحن نعرف أن للنبات نمواً . ولكن أيضا فيه اختيار إلهى مخلوق فيه . ذلك أن النبات يأخذ الماء من التربة فى شعيرات صغيرة فيها يسمونه (الضغط الإسموزى) ، مما يجعل الماء يصعد فى هذه الشعيرات .

ولقد قمنا بهذه التجربة ونحن فى المدارس . عندما أتوا لنا بأنابيب شعرية . ووضعوها فى إناء مملوء بالماء . فصعد الماء فى الأنابيب الشعرية بواسطة الضغط الإسموزى . وقالوا إن النبات يتغذى بهذه الطريقة . ولكنهم نسوا شيئاً . . فلو أن النبات يتغذى بهذه الطريقة لما وجدت ثمار مختلفة مادام الماء واحداً والأرض واحدة . ولكن الله سبحانه وتعالى أعطى النبات فوق خاصية النوع . . خاصية الإختيار . لذلك نجد

أن كل شجرة تختار من الأرض العناصر التى تناسب نوعها وثمرتها .

إن هذه الشجرة تختار من العناصر ما يوفر لثمرتها الحلاوة واللون والرائحة الجذابة المميزة . مثل شجرة التفاح . بينما بجوارها شجرة الحنظل . تختار ما يجعلها شديدة المرارة جامدة . ذا لون مميز . وبجانبها شجرة الفلفل ، تختار ما يجعلها حريفة ذات طعم خاص . كل هذا يسقى بماء واحد . ولكن الحياة التى خلقها الله سبحانه وتعالى فى النبات . تجعل كل نوع من الشجر يختار من عناصر الأرض ما يناسبه . واقرأ قوله تعالى :

﴿ وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ ﴾

(من الآية ٤ سورة الرعد)

هذه بعض ألوان الحياة فى النبات التى لا نلتفت إليها . حس وحركة واختيار وأداء لمهمتها .

النملة تتكلم .. والهدهد يعلم ؟

إننا إذا انتقلنا بعد ذلك إلى الحشرات نجد أن لها نظاما دقيقا وأن لها لغة تتفاهم بها مع جنسها . . ألم تقل النملة عندما رأت جنود سليمان :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴾

(من الآية ١٨ سورة النمل)

من الذى عرف النملة أن هذا سليمان ، وأن من معه هم جنوده ؟! ومن الذى أعلمها أنهم حين يطأون النمل سيحطمونه ويقتلونه دون أن يشعروا بذلك ؟ من الذى جعل النملة تدرك ذلك ، وبأى عقل أدركت إلا أن تكون لها حياة لا نعرف عنها نحن شيئا . وأشياء تدرك . ولكننا لا نفهمها ؟!

إنك لو قرأت قصة الهدهد وسليمان لأحسست بمدى العلم الذى يمكن أن يكون عند خلق الله من غير بنى الإنسان . ماذا قال الهدهد لسليمان ؟! يقول الله تبارك وتعالى :

﴿ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإِۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾

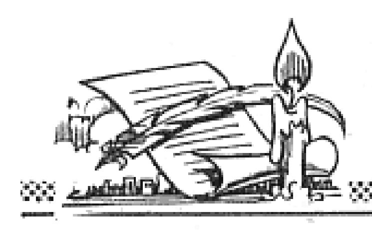
(سورة النمل)

ولنتدبر ما جاء فى هذه الآيات . . لقد أعطى الله سليمان عليه السلام ملكاً لم يعطه لأحد من العالمين ، ومع ذلك فقد أحاط ـ سبحانه ـ الهدهد بما لم يعرفه سليمان حتى يعلم سليمان أن الله سبحانه لا يقصر علمه على أحد ، وإن الإنسان إن علم شيئا غابت عنه أشياء .

من الذى علم الهدهد أن هذه المملكة تسمى مملكة سبأ ، وأن هؤلاء القوم تحكمهم امرأة وأن لها عرشا عظيما ، وأنهم يسجدون للشمس من دون الله ، وأن ذلك من عمل الشيطان الذى زين لهم أعمالهم ؟! كل ذلك علم أعطاه الله تعالى للهدهد بينما نحن نعتقد أن الطير لا علم لها . وأنها تجوب السماء بحثا عن رزقها . وأن هذا هو كل عملها !

إن الله يطلعنا أن للنمل لغة يتكلم بها ، ولو فهمنا لعرفنا ما يقول . وأن الهدهد له علم . ولو عرفنا أن نخاطبه لعرفنا الكثير مما هو غائب عنا . وأن كل هؤلاء يسبحون لله سبحانه وتعالى ! فالحياة لا تشمل الإنسان وحده . ولكنها تشمل أجناس الكون كله . وإن كنا لا نعرف عنها إلا قدراً بسيطا .

حياة .. لكن لا نعرفها



إن هناك أحياء ولا نعرف عنهم شيئا إلا ما أخبرنا الله تعالى به . فالملائكة مخلوقات من نور . لا نراها ولا نسمعها والجن مخلوق من نار . لا نراه ولا نسمعه ، إلا إذا تشكل فى شكل مادى . ويخبرنا الحق تبارك وتعالى فى القرآن الكريم عن الشيطان بقوله :

﴿ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ﴾

(من الآية ٢٧ سورة الأعراف)

ونحن نتساءل : كيف يمكن أن نؤمن بحياة أشياء وأجناس لا نراها ؟

نقول : أن رؤية الإنسان للشىء ليست هى الوسيلة الوحيدة لإثبات وجوده ، بل إن هناك ما هو موجود ولكننا لا ندرك وجوده . فوجود الشىء لا يعتمد على إدركنا لهذا الوجود ، ولذلك هيأ الله سبحانه وتعالى ما كشف لنا من علمه أشياءً أدركنا وجودها . ولم نكن ندركها فى الماضى .

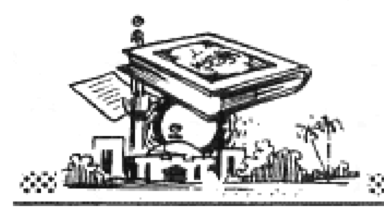
إنك إذا نظرت ـ على سبيل المثال ـ إلى قطرة الماء لا ترى شيئا . ولكن ضع هذه القطرة تحت ميكروسكوب ضخم ، تجد فيها حياة وأشياء تتحرك . أنظر إلى قطرة الدم . . لن ترى

فيها شيئا . ولكن إبعث بها إلى المعمل ، إنه سيعطيك عشرات الأشياء الموجودة بها مثل كرات الدم الحمراء والبيضاء والهيموجلوبين وغير ذلك . بل إن الميكروب الذى يدخل الجسم هو شيء فى غاية الدقة ، نراه فى الدم ونحدد نوعه .

والعلم الحديث أتاح لنا أن نعرف من أسرار السماء ما لم نكن نعرفه . . وفى كل يوم نكتشف أسراراً جديدة وكواكب ونجوما كانت بالنسبة لنا مجهولة . . هل هذه الأشياء خلقت فى اللحظة التى اكتشفناها فيها . . والجواب لا . بل كانت موجودة قبل ذلك تؤدى مهمتها فى الكون .

والميكروبات التى أتاحت لنا الميكروسكوبات الحديثة رؤيتها وعدّها وتصنيفها كانت من قبل موجودة . وكانت تسبب الأمراض للناس . ولكن أحداً لم يكن يعلم عنها شيئا . إلى أن ظهرت هذه الميكروسكوبات التى تكبر مئات ألوف المرات . فاكتشفنا أن هناك حياة هائلة لا نعرف عنها شيئا . حياة فيها توالد وتكاثر ولها قوانينها . ولكنها من الدقة بحيث لا تراها مع أنها تدخل إلى جسدك وتسبب لك الحمى وقد تقتلك .

إن أشعة الليزر مثلا التى تحدد المسافات تحديداً دقيقاً . والتى نستخدمها الآن فى الزراعة وفى الجراحة وفى أشياء كثيرة ، هذه الأشعة هل الإنسان هو الذى أوجدها فى الكون ؟ بالطبع لا . ولكنها مخلوقة منذ الأزل وتؤدى مهمتها بدقة بينما لم نكتشفها إلا منذ سنوات قليلة .



حين أراد سليمان عليه السلام أن ينقل عرش بلقيس بعد أن غادرت مملكتها فى طريقها إلى سليمان . . ماذا قال لأعوانه من الجن والأنس ؟ قال كما يروى لنا القرآن الكريم :

﴿ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾

(من الآية ٣٨ سورة النمل)

لقد تسابقت الأجناس لإحضار عرش بلقيس لسليمان عليه السلام . سكت الإنسان لإنه من طين لا يملك خفة الحركة ولا سرعتها . والجن العادى سكت أيضا . . لكن الذى تكلم هو عفريت من الجن فماذا قال ؟ يروى القرآن هذه الواقعة بقوله تبارك وتعالى :

﴿ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ﴾

(من الآية ٣٩ سورة النمل)

أى قبل أن يغادر سليمان مجلسه . كم يستغرق مجلس سليمان ؟ ساعة ساعتين ثلاثا . المهم قبل أن يقوم سليمان من مقامه سيجد العرش عنده . ولكن ماذا قال الذى عنده علم من الكتاب ؟

قال كما يحكى القرآن الكريم :

﴿ أَنَا ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ﴾

(من الآية ٤٠ سورة النمل)

وقبل أن يكمل جملته كان عرش بلقيس موجودا عند سليمان !!

إذن هناك من العلم ما يجعل الإنسان قادراً على أن ينقل شيئا من مكان إلى آخر فى ثوان . ولكن هذا العلم ليس متاحاً إلا لمن خصهم الله سبحانه وتعالى به . ومعنى انه نقل العرش فى ثوان .. إنه ناداه أو أصدر إليه الأمر فانتقل من قصر بلقيس فى اليمن إلى مجلس سليمان فى الشام !

إن هذا يدفعنا إلى أن نسلم بكل ما يأتينا الله سبحانه به من أشياء لا نراها . ولا ينبغى لنا أن ننكر وجودها ولا حياتها . لأننا لا ندركها .. لماذا ؟ لأن عندنا بالدليل القاطع مئات الأشياء التى لم نكن نراها ولم نكن ندرك وجودها . ثم أدركنا هذا الوجود . فإذا هى حقيقة ثابتة فى الكون .

هناك كذلك حياة فى أجسادنا . ونحن لا ندركها . أعضاء الجسم : اليد والقدم واللسان والجلد . وكل أعضاء أجسادنا لها حياة نحن نعتقد أنها مأخوذة منا . بمعنى أننا نأمرها فتطيع . القدم تأمرها بالسير إلى المسجد فتطيع . وتأمرها بالسير إلى الخمارة فتطيع . واليد تعين عاجزاً على عبور الطريق . وتبطش

بها وتقتل الناس وتعتدى عليهم . واللسان تقول الصدق فيطيعك . وتقول الكذب فيطيعك أيضا .

هذه الأعضاء أنت ـ فى الظاهر ـ مسيطر عليها . تفعل لك ما تشاء . ولكن فى الحقيقة أن لها حياتها الخاصة . فهى مسبحة ومؤمنة . ولها لغة تتكلم بها . هى مسخرة لك فى الحياة الدنيا فقط . فإذا انتهت . . فلا سلطان لك عليها . . ففى الآخرة لا تأتمر ولا تخضع لمشيئتك ، بل تشهد عليك وتلعنك إن سخرتها فيما يغضب الله . واقرأ قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيۡهِمۡ سَمۡعُهُمۡ وَأَبۡصَٰرُهُمۡ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٢٠ وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمۡ لِمَ شَهِدتُّمۡ عَلَيۡنَاۖ قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنطَقَ كُلَّ شَيۡءٖ ﴾

(الآية ٢٠ ومن الآية ٢١ سورة فصلت)

إن من أدى فريضة الحج يتعجب للنشاط الذى يغمر الحجاج ، فرغم المشقة ورغم أنهم لا يحصلون على النوم فترة كافية . تجدهم فى منتهى النشاط ، بينما هم يفتقدون ذلك النشاط فى بلادهم رغم ما يجدونه من راحة !!

نقول إن ذلك يحدث لأن هذه الأعضاء لا تريد أن تنام ولا تريد أن تستريح . بل تريد أن تظل ذاكرة عابدة لله . فأثناء أداء المشاعر لا يشغل الإنسان إلا ذكر الله . وهذه الأعضاء تتمنى لو أنها لم تغب عن الذكر بالنوم . حتى تظل

مسبحة . بينما أعضاء الكافر العاصى تدفعه إلى النوم . حتى تستريح من معصيته .

قد يقول بعض الناس كيف يمكن لهذه الأعضاء الصماء أن تتكلم ؟ ونقول إن الآية الكريمة تقول :



(من الآية ٢١ سورة فصلت)

إذن كل ما يسمى « شيء » فى الدنيا له لغة ينطقه الله بها فالكون كله مسبح لله سبحانه . وإذا تعجبت من أن جلدك ويديك وقدميك ولسانك تشهد عليك . وأن لها لغة ولها تمييز . نقول إن الله سبحانه وتعالى قد لفتنا إلى ذلك . إننا نجد أعضاء الجسد يعرف بعضها بعضاً معرفة يقينية بواسطة لغة خاصة أو شفرة خاصة . فإذا فقدت جزءاً من جلدك مثلا . وأردت أن تعوضه بجزء من جلد إنسان آخر . فإن الجسد لا يقبله ويلفظه . بينما إذا جرحت أنت أو فقدت عدداً من خلاياك بسبب جرح عميق أو حرق . فإن جسدك يعمل كله بمنتهى القوة لينسج نسيجاً جديداً من نفس نوع نسيجك القديم . ليعوضك عما فقدت .

إذن فكل جسد يعرف أجزاءه جيداً . ويطرد الخلايا الغريبة عنه . ومعنى ذلك أن الله سبحانه وتعالى قد علمه كيف يميز بين خلاياه وخلايا جسد آخر .

كل ما فى الكون حى

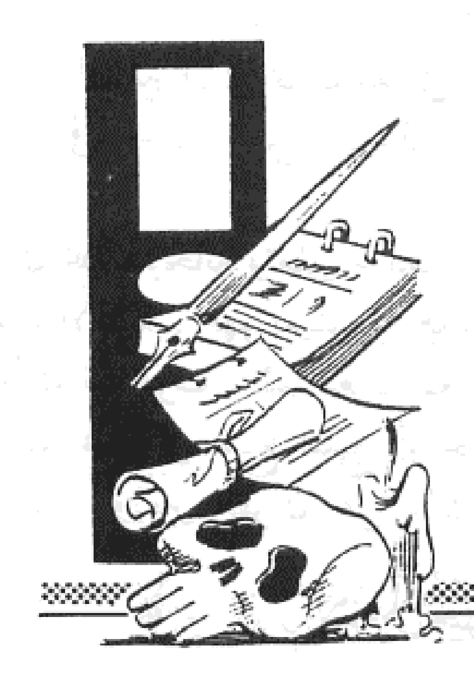
وبإيجاز نجمل ما فصلناه وهو أن كل شيء فى هذا الكون حى . وكل شيء له حياة تناسب مهمته . فلا الجماد ميت ولا النبات ميت ولا الحيوان . ولكننا لا نفهم هذه الحياة . وأن الجماد له حس وشعور وأنه يبكى . وأنه إذا مات ابن آدم بكى عليه موضعان : موضع سجوده . وموضع صعود عمله . وأن الله سبحانه وتعالى أعطانا فى القرآن أمثلة عن علم الأجناس الأخرى وحياتها . فالنملة علمت أن هذا سليمان . وأنه سيحطم النمل هو وجيشه بأقدامهم .

وأن الحياة موجودة فى كل أجناس الكون . . ما نراه أمامنا جامداً لا يتحرك مثل صخور الجبال وحبات الرمال . وما نراه فى أجناس الكون الأخرى التى لا نعلم عن حياتها شيئا . وبينا الدليل أن هذه الأجناس لها مهمة تقوم بها فى الكون .

كما بينا أن الوجود شيء وإدراك الوجود شيء آخر . فالحياة لا تقتصر على الإنسان . ولكنها تمتد إلى كل أجناس الكون .

ولكن هل هذه هى الحياة التى يريدها الله سبحانه لنا . هى الحياة الدنيا . . أم أن هناك حياة أخرى غير هذه الحياة . . هى التى عناها رب العزة سبحانه وتعالى . . هذا ما سوف نتناوله ـ بإذن الله وعونه ـ فى الفصل التالى .

الفصل الثالث



ما هو المـــوت ؟

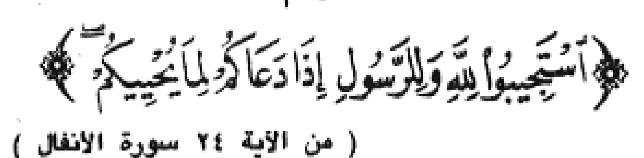
قبل أن نبدأ فى الحديث عن الموت .
لابد أن نقول إن الحياة عند الله ليست هى
الحياة الدنيا . بل إنها الحياة الآخرة . ذلك
أن الله سبحانه وتعالى عندما خلق الإنسان
ونفخ فيه من روحه . أعطاه الأبدية . بمعنى
أن كل من وُلد وجاء إلى هذه الحياة سيبقى
خالدا مخلدا . إمَّا فى الجنة وإما فى النار والعياذ بالله . حتى
الطفل الصغير الذى يموت وهو فى أول العمر . سيبعث ويكون
خالداً فى الجنة ، بل سيأخذ أبواه معه ويدخلهما الجنة .

إن الله سبحانه وتعالى عندما نفخ من روحه فى الإنسان ،
أعطاه الأبدية . فهو يعيش فى هذا الكون حياته الدنيا أياما أو
سنوات ثم يموت ، ثم يبعث فيعيش الحياة الأبدية فى الآخرة
حسب عمله فى اتباع المنهج أو مخالفته . . فهو إما ينعم وإما
يعذب . ويعبر القرآن عن ذلك فى قول الله سبحانه :

﴿ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾

(من الآية ٦٤ سورة العنكبوت)

أى أن الدار الآخرة هى الحياة الحقيقية التى يعيشها
الإنسان . أما الحياة الدنيا فهى محدودة مهما طالت أعمارنا
فيها . وهى دار اختبار للإنسان . لادوام فيها . يقول الله
سبحانه وتعالى فى كتابه الكريم :



(من الآية ٢٤ سورة الأنفال)

هذا الخطاب للمؤمنين ، والله سبحانه وتعالى يخاطبهم وهم أحياء . فكيف يقول لهم (لما يحييكم) مع أنهم أحياء فعلا ؟

نقول إن هذه الحياة ليست هى حياة الخلود التى أعدها الله للإنسان . ولكنها دار اختبار . يختبر فيها الإنسان فى منهج الله . فإذا نجح دخل الجنة . وإذا ترك شهواته ومعاصيه تسيطر عليه . دخل النار .

الله سبحانه وتعالى يسمى كل حى فى هذه الدنيا ميِّت ومعنى مَيِّتْ . أن مصيره حتما إلى الموت . ولذلك يخاطب الله رسوله صلى الله عليه وسلم بقوله :

﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ۝٣٠ ﴾

(سورة الزمر)

مع أن الخطاب وُجِّهَ للرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه وهم أحياء . فكيف يخاطبهم الله تعالى بأنهم أموات ؟ ذلك لأن هذا هو مصيرهم ، والإنسان عندما يولد وتبدأ حياته ينطلق فى نفس اللحظة سهم الموت . ويظل الموت يبحث عن صاحبه حتى يأتى الأجل فينفذ السهم .

والموت ليس أصيلاً فى الكون . ولكنه رحلة عابرة . نحن فى عالم الذر كنا أمواتا . جئنا إلى الدنيا أحياء . ثم نموت مرة أخرى . ثم نبعث ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ

﴿ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾

(سورة البقرة)

إن مراحل حياة الإنسان ، أو رحلة الحياة التى يقوم بها الإنسان مقسمة إلى أربع مراحل : المرحلة الأولى : موت فى عالم الذر . والمرحلة الثانية : حياة فى الدنيا ، والمرحلة الثالثة موت فى حياة البرزخ . والمرحلة الرابعة حياة خلود إما فى الجنة وإما فى النار . وفى يوم القيامة يأتى الموت وتقبض روحه أو يذبح كما يخبرنا بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حديثه الشريف :

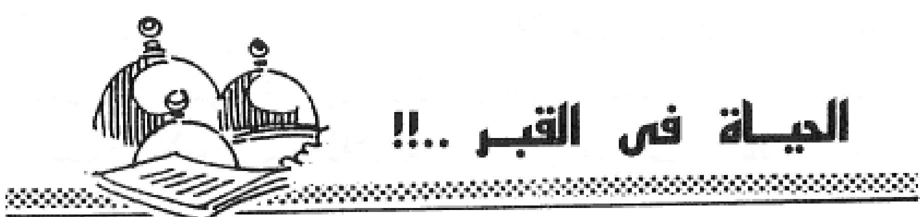
« يأتى الموت يوم القيامة على هيئة كبش فيذبح . وينادى مناد من قبل الله تعالى : يا أهل الجنة خلود بلا موت . ويا أهل النار خلود بلا موت » .

إذن فهناك نهاية للموت . يقول الله سبحانه وتعالى عن أهل الجنة :

﴿ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ ﴾

(سورة الدخان)

وهكذا نعرف أن الموت له نهاية . وأن الحياة هى التى ستبقى خالدة مخلدة . وأن الحياة هى الأصيلة فى الكون . والموت طارىء عليها .



عندما يحين الأجل تأتى ساعة الإحتضار . وتعقبها حياة القبر . ثم تنتهى هذه المرحلة بالبعث . وإذا ما دققنا النظر لأدركنا أن هذه المرحلة أو هذه الفترة وجيزة لا تقاس بما يتبعها من حياة بعد النشور . والقرآن الكريم يعبر عنها بلفظ الزيارة فى قوله تعالى :

﴿ أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝٢ ﴾

(سورة التكاثر)

إى إن الإنسان فى القبر هو مجرد زائر . وليس مقيما إقامة دائمة . ومادام زائراً وليس مقيما ، فإن الزيارة مهما طالت . . سيأتى لها وقت وتنتهى وتزول . وهى زيارة ستنتهى بيوم الحشر . فالموت هو انتقال من قوانين إلى قوانين أخرى مختلفة . فالإنسان فى حياته . له جرم مادى . هو الجسد ، ولكن فى الموت يعود الجسد إلى الأرض مرة أخرى . ثم ترد إلى صاحبه يوم القيامة .

والموت يبدأ بالاحتضار . ومعنى الاحتضار . أن حياة الاختيار البشرى قد انتهت . فالإنسان فى الحياة الدنيا له اختيارات . وله عقل يختار بين البدائل . ولكنه ساعة يحتضر . . تنتهى فترة الاختيار التى كانت اختباراً له وامتحانا

واتبلاءً . وتبدأ مرحلة أخرى جديدة لا إختيار له فيها . يصبح الإنسان فيها مقهوراً . إن الإنسان حين يحتضر . يعرف يقينا أنه ميت . لأنه يرى الملائكة . ويرى من كون الله ما كان محجوباً عنه . واقرأ قوله تعالى :

﴿ لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾ ﴾

(سورة ق)

فى هذه اللحظات تخمد البشرية وتتحدد المصائر يقينا إما إلى الجنة أو إلى النار . . إما أن يرى ملائكة الرحمة . وإما يرى ملائكة العذاب . هكذا أخبرنا الله سبحانه وتعالى فى كتابه العزيز بما يحدث لأهل الجنة حين يحضرهم الموت يقول سبحانه :

﴿ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ ۙ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾

(سورة النحل)

وهكذا نعلم أن المؤمنين أصحاب العمل الصالح . ساعة الإحتضار . يرون ملائكة الرحمة . وتكون أول بشارة لهم بالجنة . فتنفرج أساريرهم . ويبتسمون فرحين لأنهم ذاهبون إلى خير مما كانوا فيه . إذا نظرت إلى وجوههم بعد الوفاة تراها ساكنة مطمئنة لما رأت من وعد الله الذى لا يخلفه .

أما أولئك الذين كفروا وعصوا الله وأشركوا به وحاربوا

دينه . فإن لقاءهم مع الموت يختلف . يخبرنا بذلك القرآن الكريم فى قول الله عز وجل :

﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ﴾

(سورة الأنفال)

ويعطينا الله سبحانه وتعالى وصفا آخر للكفار فى الآية الكريمة التى تقول :

﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴾

(من الآية ٩٣ سورة الأنعام)

وهكذا نعرف من هذه الآيات الكريمة انه كما يرى المؤمن مصيره ومقعده فى الجنة وهو يحتضر ، يرى الكافر مصيره ومقعده فى النار وهو يحتضر . بل إن ملائكة العذاب يهينون الكافر جزاءً على كفره . فيضربونه على وجهه وعلى ظهره . ويجعلونه يذوق عذاب الحريق . ويتحدونه إن كانت له عزوة أو جاه أو منعة فى الحياة الدنيا ، فليخرج نفسه مما هو فيه من عذاب وإهانة ، ولن يستطيع إخراج نفسه لأنه لا يملك القوة ولا القدرة .

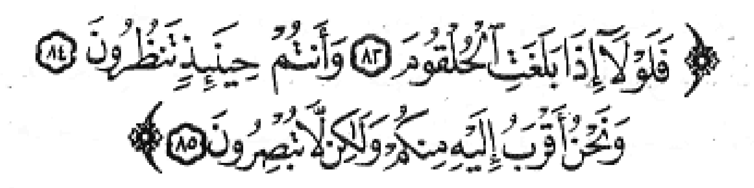
لقد انتهى الاختيار البشرى وأصبح مقهوراً ككل أجناس الكون . بعد أن نعِمَ بالاختيار فى الحياة الدنيا . ومن علامات

سوء الخاتمة ـ والعياذ بالله ـ إنك ترى الكافر أو الظالم وقد اكفهر وجهه وتشنج جسده وتقلصت ملامحه من هول ما يرى من العذاب الذى ينتظره .

يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم يحذر الناس من هذا المصير أيها الناس :

« إن لكم معالم فانتهوا إلى معالمكم . وإن لكم نهاية فانتهوا إلى نهايتكم . إن المؤمن بين مخافتين . بين أجل قد مضى لا يدرى ما الله صانع فيه . وبين أجل قد بقى لا يدرى ما الله تعالى ماض فيه . فليأخذ العبد لنفسه من نفسه ومن دنياه لآخرته . ومن الشيبة قبل الكبر . ومن الحياة قبل الموت . والذى نفس محمد بيده ما بعد الموت من مستعتب . ولا بعد الدنيا دار إلا الجنة أو النار » .

إن ساعة الاحتضار ـ كما صورها لنا القرآن الكريم ـ تزيل الحجب وترفع الغطاء وتحد البصر ، وتكشف كل ما كان غيبا عنا مصداقا لقوله تعالى :



(سورة الواقعة)

فى هذه اللحظة تبدأ أول منازل الآخرة . لأن من مات قامت قيامته وعرف آخرته . . إنه حين يموت يسمع ، لكنه

لا يستطيع الرد . ويرى ، لكنه لا يستطيع أن يروى ما يراه .
إن لهم إدراكا كما للحى إدراك .

يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم لنا : «إذا زرتم المقابر فسلموا على أهلها . وقولوا : السلام عليكم ديار قوم مؤمنين» ومادام رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أمرنا بهذا ، فلابد أن هناك إدراكاً ما عند أهل المقابر لهذه التحية ، وإلا لما أمرنا بها رسول الله صلى الله عليه .

إذن هناك إدراك ما لسكان القبور بالنسبة لزائريهم وتحيتهم لهم . وهناك إدراك آخر بأن هناك عقلا أو فكرا مما يجعلهم يميزون بين الأمل واليأس . قال تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا۟ مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ ﴿١٣﴾ ﴾

(سورة الممتحنة)

درجة اليأس هذه التى وصلوا إليها محتاجة إلى إدراك بشىء ما . فلا يمكن أن يصل إلى درجة اليأس أو يعيشها إلا مدرك يميز بين الأشياء ، بحيث يعرف أن هذه درجة يأس ، وهذه درجة أمل . فالله تعالى قد قال : « كما يئس الكفار من أصحاب القبور » .

حياة البرزخ .. خارج الزمن

إذن حياة البرزخ فيها إدراكات يعرفها الميت ، وحياة القبر ليس فيها زمن . لذلك فإن الإنسان إذا نزل القبر فى أول عمر الدنيا . واستمر إلى يوم القيامة . فإنه يعتقد أنه أمضى يوماً أو بعض يوم . والله سبحانه وتعالى أعطانا مثلا حيّاً لذلك فى قصة أهل الكهف . حيث أنامهم ثلاثمائة سنة وتسعاً . وعندما إستيقظوا تساءلوا كما يخبرنا القرآن الكريم :

﴿ وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ﴾

(من الآية ١٩ سورة الكهف)

لماذا قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم . لأنهم نظروا إلى وجوه بعضهم البعض وإلى ثياب كل منهم فوجدوها كما كانت عندما جاءوا إلى الكهف . ولو أنهم حينما قاموا وجدوا أظافرهم طويلة وشعورهم وذقونهم تحولت من السواد إلى البياض . ووجوههم ظهر عليها أثر السنين . . ما قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم . ولكنهم كانوا ـ خلال هذه الثلاثمائة سنة ـ خارج الزمن . فلم يترك الزمن بصماته عليهم . .

كذلك أصحاب القبور يقومون على الهيئة التى دفنوا بها . فلا يموت إنسان وهو طفل ثم يبعث عجوزاً مهما مرت عليه السنون ، ولذلك يسألهم المولى سبحانه قائلا :

﴿ قُلْ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ (١١٢) قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ (١١٣) ﴾

(سورة المؤمنون)

من هنا نعرف من قوانين البرزخ . أنه لا زمن يترك بصماته على الناس ، لأنهم يعيشون خارج هذا الزمن .

ولكن هل يوجد عذاب لأصحاب القبور ؟ والجواب انه لا عذاب إلا بعد الحساب . وإن كان الإنسان ـ وهو فى قبره ـ يرى مقعده من النار ومقعده من الجنة . لماذا ؟ ليعرف المؤمن فضل الله تعالى عليه لأنه نجاه من النار ، ويدرك هذا الفضل عندما يرى النار ولهيبها ويرى الجنة ونعيمها . هنا تحدث المقارنة بين الذى أحسن وبين الذى أساء . . بين الذى ظلم نفسه فحرمها من النعيم المقيم . وما صار إليه من العذاب المهين . .

يحس المؤمن بفضل الله عليه ورحمته وأنه قد وقاه من النار . فينشرح صدره ويدرك عظمة نعمة الله عليه .

لقد صور لنا الحق سبحانه وتعالى ما يحدث لآل فرعون وهم فى قبورهم . فى قوله تعالى :

﴿ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ (٤٦) ﴾

(سورة غافر)

متى يعرض آل فرعون على النار ؟ هل عُرضوا عليها فى الدنيا ؟ لو أنهم عرضوا ورأوها دقيقة واحدة ما عبدوا فرعون . بل لكانوا هم الذين قتلوه وألقوه فى البحر .

إن العرض على النار بالنسبة لآل فرعون لم يحدث فى الدنيا . . فهل سيحدث ذلك فى الآخرة ؟ لا . لأنه فى الآخرة لن يكونٍ هناك عرض . بل سيدخل آل فرعون النار ليعذبوا .

إذن هم لم يعرضوا على النار . ولن يعرضوا عليها فى الآخرة ولكنهم سيدخلونها بالفعل .

بقيت بعد ذلك حياة البرزخ أو حياة القبر . . إن آل فرعون يعرضون على النار غدواً وعشيا خلال حياة القبر أو البرزخ . ولكن هل يخرج آل فرعون مرتين كل يوم ليعرضوا على النار ؟ أم أنهم يعرضون عليها وهم فى قبورهم ؟

لا أحد يستطيع أن يجزم بشىء . إلا أن هناك نوعا من العذاب يتعرض له الإنسان فى قبره . ولكن العذاب الحقيقى لا يأتى إلا بعد الحساب يوم القيامة ، ويكفى آل فرعون عذابا أنهم يرون النار التى سيعذبون فيها مرتين ـ غدواً وعشيا ـ لأن انتظار البلاء أشد من وقوعه . ولذلك فهم متيقنون أنهم

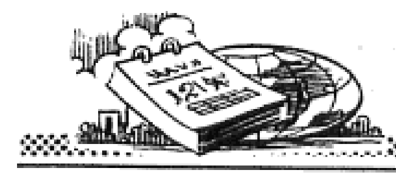
سيعذبون فى هذه النار . وكلما نظروا إليها كان ذلك عذابا رهيباً لهم . وربما كان عذاباً أشد من عذاب النار نفسها .

لقد قضى ربك سبحانه وتعالى أن من خرج من الدنيا لن يعود إليها مرة أخرى ، إلى يوم البعث يقول تعالى :

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾﴾

(سورة المؤمنون)

ما هو البرزخ ؟ البرزخ هو الفاصل بين الأحياء والأموات . بحيث لا يمكن لإنسان مات أن يعود إلى الحياة الدنيا مرة أخرى . حتى أن الشهداء عندما رأوا ما أعده الله لهم من النعيم العظيم طلبوا من الله تعالى أن يعودوا إلى الحياة ليخبروا إخوانهم بما رأوا . فقال لهم سبحانه : لقد كتبت أن من يخرج منها لا يعود إليها . وأخذ سبحانه على نفسه مهمة إبلاغ المؤمنين بفضل الشهادة ومنزلة الشهداء .



وحده .. يحيى ويميت

إن الله سبحانه وتعالى هو خالق الموت والحياة . أى أنه سبحانه وحده هو الذى ينقل الإنسان من الحياة إلى الموت ومن الموت إلى الحياة . ولذلك فإن من أسمائه الحسنى سبحانه : المحيى المميت . ويقول سيدنا إبراهيم عليه السلام قال كما جاء فى القرآن الكريم :

﴿ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾ ﴾

(سورة الشعراء)

فى هذه الآيات الكريمة نلاحظ أن الله سبحانه وتعالى أكد الأشياء التى يعتقد بعض الناس أن لغير الله فيها عمل . أما الأشياء التى لا يمكن أن يدعى إنسان أن له فيها عملا . فإنه جاء بها مرسلة .

يقول تعالى : الذى خلقنى . لا يستطيع أحد أن يدعى أنه يخلق . ولكنه قال فهو يهدين ، فجاء بضمير الفصل المؤكد ، لأن هناك من يدعى أنه يهدى ويأتى بغير الحق ليجعل الناس

تتبعه وليتخذوه سبيلا . إنه سبحانه لم يأت بهذا الضمير على لسان إبراهيم عليه السلام . . فلم يقل الذى (هو) خلقنى بل قال (الذى خلقنى) . لأن قضية الخلق محسومة لله وحده سبحانه وتعالى . وجاء الضمير أيضا فى قول إبراهيم عليه السلام عندما قال : (والذى هو يطعمنى ويسقين) جاء بلفظ (هو) هنا أيضا لأن هناك عملا للإنسان فى نفسه مثل استخراج الطعام . وإيصال الماء إلى الناس .

ثم قال جل جلاله : « وإذا مرضت فهو يشفين » وجاء بالضمير هنا كذلك حتى لا يدعى أحد أن الطبيب يشفى . والحقيقة غير ذلك تماما . فالطبيب يعالج . وإنما الذى يشفى هو الله سبحانه وتعالى . بل قد يكون الطبيب سببا من أسباب الأجل أو أسباب الموت . فلربما أعطى المريض دواءً خطأ . أو يحقنه بما يعتقد أنه سيشفيه . فيكون السبب فى موته ، ولذلك أكدها الله تعالى بضمير الفصل . . لأنه كما قلنا يأتى للتأكيد فقال : « فهو يشفين » .

ولكن عندما جاء إلى الموت والحياة . لم تكن هناك حاجة لإستعمال ضمير التأكيد فقال : « والذى يميتنى ثم يحيين » لماذا ؟ لأن الموت والحياة لله وحده لا يستطيع أحد أن يدعيهما .

النمرود .. وادعاء الموت والحياة

يروى القرآن الكريم لنا قصة « النمرود » ذلك الذى أتاه الله الملك . فبدلا من أن يشكر الله على نعمته ويعمل صالحا . أخذه غرور الدنيا . فادعى أنه يحيى ويميت . واقرأ قوله تعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٢٥٨) ﴾

(سورة البقرة)

وجاء النمرود بأحد رعاياه وقال لجنوده اقتلوه . ثم قال لقد أمته !! وقبل التنفيذ قال : اعفوا عنه . وقال قد أحييته !!

نقول له : إنك لم تفرق بين حدثين ولم تفرق بين القتل والموت . فالقتل ليس موتاً . وإنما هو هدم لبنيان الجسد فتخرج منه الروح . لأن الروح لا تبقى إلا فى جسد سليم بمواصفات خاصة . ولذلك يقول الله سبحانه وتعالى عن رسوله صلى الله عليه وسلم :

﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ

﴿ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

فالموت يختلف عن القتل . . الموت هو أن تخرج الروح من الجسد والبنية سليمة . ولا يميت إلا الله سبحانه وتعالى . ولكن القتل يستطيعه الإنسان بآلة حادة أو بطلقة رصاص . وفى الحالتين تغادر الروح الجسد . فى الحالة الأولى (وهى الموت) تخرج الروح من الجسد والبنية كاملة . وفى (حالة القتل) لابد أن تهدم البنية أولا قبل أن تخرج الروح . وكلاهما : الميت والمقتول يحشران إلى الله يوم القيامة . . مصداقا لقوله تعالى :

﴿ وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٥٨﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

وهكذا نرى أنه مهما كانت نهاية الإنسان قتلا أو موتاً . فهو ملاق الله يوم القيامة . وكما قلنا أن الموت نقض للحياة ، وأن الحياة نقض للموت . لذلك فهما لا يجتمعان فى شىء واحد . ولكن إما حياة وإما موت . قال تعالى :

﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾ ﴾

(سورة الملك)

فكأن الحياة اختبار . ويأتى بعدها الموت . . لتبدأ أولى مراحل الآخرة . ثم الحساب . لكن الله سبحانه وتعالى أخفى عنا موعد الموت بحيث لا يدرى به أحد . فقال سبحانه :

﴿ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿٣٤﴾ ﴾

(سورة لقمان)

هذا الإخفاء من الله له حكم بالغة . أولا إن الإنسان يتوقع الموت فى أية لحظة ، وهذا التوقع هو إعلام بالموت . فأنت تعلم أنك يمكن أن تموت فى الساعة القادمة . فتسارع إلى فعل الخيرات . خوفاً من ألا يمهلك أجلك فتقبض وحسناتك قليلة . كذلك تمتنع عن السيئات خوفا من أن تفعلها ولا يمهلك القدر حتى تتوب . فتموت وأنت عاص .

إذن إخفاء موعد الموت هو أكبر إعلام به . وفى نفس الوقت أكبر إستعداد لملاقاته فى كل لحظة ، فنسرع إلى الخير ونبتعد عن المعصية . فيعم الخير الكون وتقل المعاصى . .

ويجب أن تتيقن : أنه لا سبب للموت إلا الأجل . لا تصدق أن مرضاً يقتل أو رصاصة تصيب إلا إذا انتهى أجل الإنسان فى هذه الحياة . فالإنسان حين يمرض قد يأخذ قرصا من الأسبرين وكوبا من الشاى فيشفى لأن له أجلاً . وقد ينقل إلى المستشفى يحيط به عشرات الأطباء ويموت . لأن الموت من أقدار الله ، وأقدار الله لا يغلبها أحد .

ويقول الله تعالى :

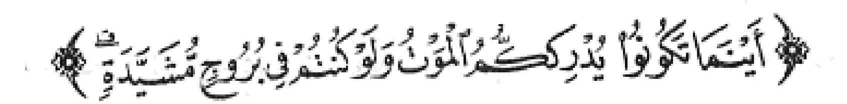
﴿ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ۗ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۚ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ (٤٩) ﴾

(سورة يونس)

لا تأخذ بالأسباب فى الموت . لأن الموت يوم أن يأتى فكل الكون أسبابه . ولا يستطيع أحد أن يمنعه . وقد سئل على بن أبى طالب رضى الله عنه : ألا تخاف الموت ؟ قال : لا . يوم يأتى لا يستطيع أحد أن يمنعه . ويوم لا يأتى لا يستطيع أحد أن يأتى به . .

إن الأسباب التى نعددها للموت كالمرض والشيخوخة وغيرها إنما هى أسباب غير حقيقية . لأن الموت إذا جاء لا يحتاج إلى سبب . ولكن من الحق أن نقول : إنه مات لأن أجله انتهى .

يقول الحق سبحانه وتعالى :



(من الآية ٧٨ سورة النساء)

ونجمل ما فصلنا فنقول : أن الحياة والموت نقيضان . ينقض أحدهما الآخر . وأن الله سبحانه وتعالى قد منح الإنسان خلوداً فى الحياة . فالموت طارىء وينتهى وسيذبح يوم القيامة .

وأن الإنسان خالد فى هذا الكون إما فى الجنة وإما فى النار والعياذ بالله . وأن حياة القبر فيها نوع من الإدراك . لذلك نسلم على أصحاب القبور حين نزورهم . كما يعترى الكفار من أصحاب القبور يأسا من رحمة الله . وفيها خروج عن الزمن لأن أصحاب القبور لا يؤثر فيهم الزمن ولا يحسون به . وفيها نوع من شهود العذاب . والموت هو نهاية للفترة التى أعطاها الله للإنسان وجعله مختاراً فيها . لكنه عندما يحتضر يكون الاختيار البشرى قد انتهى . وفترة الاختبار قد تمت .

وأن المؤمن عندما يحتضر . تتلقاه ملائكة الرحمة يبشرونه بالجنة . فيموت وهو منشرح الصدر . لأنه ذاهب إلى خير مما كان فيه . والكافر تتلقاه ملائكة العذاب . فيضربون وجهه وظهره ويذيقونه ألوان العذاب . فيموت مكفهر الوجه لأنه ذاهب إلى شر مما هو فيه . والله سبحانه وتعالى هو خالق الحياة والموت . لا يمكن لأحد أن يدعيهما . ولا أن يقول أنه يحيى ويميت . فالله سبحانه وتعالى يخرج الحى من الميت ومخرج الميت من الحى .

لقد تحدثنا عن موت الإنسان . . فماذا عن خلوده ؟! وما حقيقة هذا الخلود ؟ هذا ما سوف نفصله فى الفصل التالى إن شاء الله .

الفصل الرابع



الانســان والخلـود

الله سبحانه وتعالى خلق الإنسان
خالدا .. هذه حقيقة لا يتنبه لها
الكثيرون .. فالناس تقيس عمر الإنسان
بالحياة فى الدنيا .. ولكن هذا زعم
خاطىء .. الحياة فى الدنيا لا تمثل
إلا مرحلة بسيطة جدا من حياة الإنسان ..
هذا الكون .. بشمسه وقمره ونجومه ـ التى خلقت لتكون فى
خدمة الإنسان منذ ملايين السنين ـ لا يمكن أن يكون عمرها
أطول من عمر من خلقها الله له وسخرها لخدمته .. ولا يمكن
أن تحسب حياة الإنسان ببضع سنين أو بعشرات السنين التى
يقضيها فى هذا الكون .. وإنما تمتد ـ بعد ذلك ـ لتكون حياة
أبدية ..

إن كل من جاء إلى هذا الكون من الإنس والجن .. أعطاه
الله سبحانه وتعالى الخلود .. لا فرق فى ذلك بين مؤمن
وكافر .. الفرق ـ فقط ـ هو أن المؤمن يخلد فى الجنة ..
والكافر يخلد فى النار .. الفرق سيكون فى المكان الذى
سيكون فيه هذا الخلود ..

الخلود أعطاه الله تبارك وتعالى للإنسان حين نفخ فيه من
روحه ، ولكن حياتنا شاء لها ربنا أن تكون مراحل : موت ،
فحياة ، فموت ، فخلود .. لكن ـ لغفلتنا ـ نحن نأخذ
مرحلة واحدة وهى مرحلة الحياة الدنيا لنجعلها هى الحياة ..
والحقيقة أن الحياة هى ـ كما قلت ـ مرحلة ، أو جزء صغير جدا
من رحلة الحياة الكبرى الأبدية .

لقد كنا أمواتا فى عالم الْذَرّ . . ثم شاء الحق سبحانه وتعالى أن نأتى إلى هذه الحياة . . ثم بعد ذلك يميتنا فنعيش حياة البرزخ ونحن أموات . . ثم بعد ذلك يبعثنا ليتم الحساب الذى على أساسه تتحدد المواقف ونكون خالدين إما فى الجنة وإما فى النار والعياذ بالله .

حين يتحدث الله سبحانه وتعالى عن الحياة . . إنما يقصد بذلك الحياة الخالدة فى الآخرة . . فالدنيا هى دار اختبار . . والآخرة هى الحياة الحقيقية التى لابد أن يسعى إليها كل واحد منا . . ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول فى حديثه الشريف :

« مالى وللدنيا ما أنا فى الدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها » .

والموت والحياة هما لله وحده . . لا ينازعه أحد فيهما . . لقد أعطى الله سبحانه وتعالى الإنسان من أسرار كونه ما شاء ، ولكنه احتفظ لنفسه بثلاثة أشياء : الحياة ، وعوامل استمرار الحياة ، والموت . . فهذه الثلاث لا يستطيع أحد أن يدعيها لأن الله تبارك وتعالى هو الذى خلق . . وضمن لخلقه عوامل استمرار حياتهم . . ثم عندما يأتى الأجل يكتب عليهم الموت فيموتون . . بداية الخلق فى يد الله سبحانه وتعالى . . وتلك قضية محسومة لله . . فلا يمكن أن يوجد من يهب الحياة لأى خلق إلا الله سبحانه وتعالى . . والله تحدى البشرية كلها فى هذا .

يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ ۚ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ ﴾

(سورة الحج)

لقد تحدى الله تبارك وتعالى البشرية كلها . . بعلمائها وأساطينها وكل من له حول وقوة فيها ليخلقوا ذبابة واحدة . . وقال سبحانه وهو العليم بقصورهم وضعفهم . . والخطاب فيه تحد للعلم والعلماء منذ نزل القرآن وحتى تقوم الساعة بأنهم لن يستطيعوا .

ولقد كشف الله من أسرار خلقه لبعض العلماء علم الوراثة أو الجينات . . وكلان المفروض أن وصولهم إلى هذا العلم يزيديهم إيمانا بأن الله سبحانه وتعالى وضع لكل مخلوق شفرة حياته . . ولكنهم بدلا من ذلك أخذوا يستخدمون هذا العلم فى محاولة تشويه خلق الله ، فتنشأ عنه ذبابة لها أجنحة فى عينيها . . وهم يدعون أنهم يغيرون جنس المولود من أنثى إلى ذكر . . ولكنه يكون ذكرا مشوها لا يصلح لشىء . . وأن الشيطان سيغرى الإنسان ليحاول العبث وتغيير خلق الله . . كإفساد لمهمة هذا الخلق فى الكون . . والله تبارك وتعالى يصف

لنا ذلك فى كتابه العزيز فيقول سبحانه وتعالى :

﴿ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ الْأَنْعَٰمِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ ﴾

(سورة النساء)

فإذا كان علم الجينات قد حقق فى الستينات شيئا . . فإنه لن يحقق شيئا لا فى الحيوان ولا فى الإنسان . . ولن يأتى منه إلا تشويه لخلق الله بلا فائدة . . فكون العبث بالجينات قد جعل ذبابة لها جناح مكان عينيها . . فهذا لا يؤدى إلى تحسين مهمتها فى الكون . . أو جعلها أكثر قدرة ، وإنما هى عملية إفساد وتشويه !



سر الحياة .. ونهايتها

نقول إن الله سبحانه وتعالى احتفظ لنفسه بسر الحياة فلا خالق غيره .. وإحتفظ لنفسه بعوامل إستمرار الحياة .. وهى تتمثل فى الهواء والماء والطعام .. فالله جل جلاله هو خالق الغلاف الجوى .. أى أن الهواء الذى نتنفسه جميعا ليس من صنع بشر .. ولكنه من صنع الله سبحانه وتعالى .. وكذلك الماء الذى نشربه من صنع الله تبارك وتعالى .

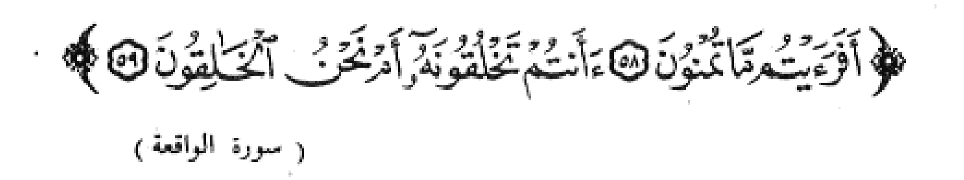
إن عملية إنزال المطر بداية من البخر الذى يحدث بأشعة الشمس .. إلى تكثيف هذا البخار فى طبقات الجو العليا .. ثم تكوين السحاب ثم الرياح التى تدفع السحاب إلى حيث يشاء الله لينزل المطر .. كل هذا من صنع الله سبحانه وتعالى .

ونقول لهؤلاء الذين يقولون إن الإنسان ينزل المطر : لن ندخل معكم فى جدل .. إن العالم ملىء بالصحارى .. والله سبحانه وتعالى خلق الأنهار التى تمتد ألوف الكيلومترات .. وأوجد لها من عناصر المياه ما يكفل استمرار جريانها .. لا نريد منكم أن توجدوا لنا نهرا .. ولكن كل ما نريده يا من تدعون أنكم تنزلون الغيث .. كل ما نطلبه منكم هو ترعة صغيرة وليس نهرا .. مجرد ترعة صغيرة فى الصحراء .. عندما تنجحون فى ذلك تعالوا وادعوا أنكم تنزلون المطر .. أما قبل ذلك فلا كلام لكم عندنا ..

إننا لا نريد أن ندخل فى مناقشة كلامية بلا موضوعية .. فقد تعبنا من السفسطة .. إن خالق الطعام هو الله سبحانه وتعالى .. هو الذى يمده بالماء وعناصر التربة اللازمة له .. فالحبة فيها من إعجاز خلق الله .. إنها تعتمد فى غذائها على مخزون للغذاء موجود فى نفس الحبة .. فيظل هذا المخزون يغذى الحبة حتى تنبت لها أوراق تتنفس بها .. وجذور تمتص الطعام من الأرض .

أن أحدا لا يستطيع أن يدعى أنه خلق الحبة الأولى لكل ما هو موجود فى هذا الكون .. فالحبة الأولى من القمح مثلا خلقها الله .. ثم بعد ذلك إنتقلت من جيل إلى جيل إلى جيل .. وكذلك كل ما فى الأرض .. والإنسان يستطيع أن يطور النوع ليحصل على محصول جيد .. وأن يزيد الإنتاجية .. ولكن البداية تبقى دائما لله .. فالإنسان لا يستطيع أن يخلق حبة واحدة .

إن عوامل استمرار الحياة كلها من الله سبحانه وتعالى .. والله يقول عن هذا الخلق:



(سورة الواقعة)

إن هذه النطفة هى من أسباب الخلق .. فالله سبحانه وتعالى هو الذى خلقها وأوجدها .. وجعل الحياة فيها مستمرة

منذ عهد آدم حتى يوم القيامة . . يقول الحق جل جلاله :

﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾

(سورة الواقعة)

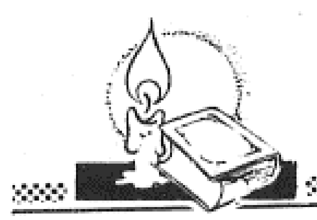
الله سبحانه وتعالى يريد أن يلفتنا . . إلى أن إنزال المطر بيده وحده . . وكل ما يقال عن غير ذلك لا أساس له من الصحة . . إنه سبحانه وحده القادر على أن يسقينا من الملح ماءً عذبا فراتا . . وفى هذا يقول الحق عن الزرع فى آياته المحكمات :

﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾

(سورة الواقعة)

وهكذا فإن مهمة الإنسان هى الحرث فقط . . والحب الذى يزرع إنما هو خلق مباشر من الله . . والماء الذى يسقى به الزرع من الله كذلك ، ودورة حياة النبات حتى يصبح شجرة ثم يعطى ثماره هو من الله . . ونحن نلقى الحبة فى الأرض . . ثم نجلس وننتظر حتى تصبح شجرة مثمرة . . وليس لنا فى نموها ولا فى دورة حياتها عمل . . ثم بعد ذلك تخرج الثمار فنجنيها .

دورتا الخلق : موت وحياة



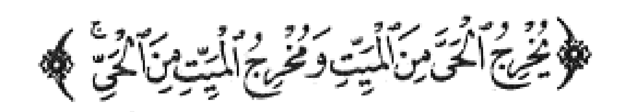
ونأتى بعد ذلك إلى نهاية الحياة .. ونهاية الحياة أيضا هى من الله .. فلا أحد يستطيع أن يعطى الخلود لنفسه أو لغيره .. والله سبحانه وتعالى يقول لرسوله صلى الله عليه وسلم :

﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِين مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾

(سورة الأنبياء)

إن كل ما توصلت إليه الدنيا من ارتقاءات حضارية وعلوم وتكنولوجيا تقف عاجزة أمام الموت .. وإن كانت هناك أسباب ظاهرية يتحدث عنها الناس .. فإن الحقيقة التى لا جدال فيها هى ان الإنسان يموت لا لشىء إلا لأن أجله قد انتهى .

ولكن بقيت نقطة لابد أن نناقشها .. إن الله سبحانه وتعالى يقول :



﴿ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ﴾

(من الآية ٩٥ سورة الانعام)

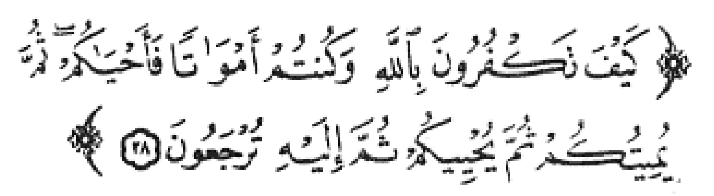
هذه الآية الكريمة .. حاول بعض العلماء أن يفسرها تفسيرا

ساذجا . . بأن الله يخرج البيضة من الفرخة والبيضة ميت . . وهكذا يخرج الميت من الحى ، ويخرج الحى من الميت أى يخرج الكتكوت من البيضة .

لقد سبق أن تحدثنا عن هذه النقطة وقلنا إن هذا تفسير ساذج . . لأن كل ما فى هذه الحياة الدنيا حى . . وله حياة تناسبه حتى الجماد . . وإذا كان كل ما فى هذه الدنيا له حياة . . فمن هو الميت الذى سيخرج منه الحياة ؟

نقول إن مرحلة الموت سابقة ولاحقة ، بمعنى أننا كنا أمواتا قبل أن نأتى إلى هذه الدنيا . . وعندما نأتى تبدأ دورة الحياة ثم نعود أمواتا مرة أخرى .

إذن فكل ما فى هذا الكون بين دورتى الخلق : (الموت والحياة) . . فالله يقول سبحانه وتعالى :

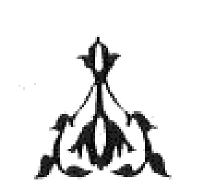

﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾

(سورة البقرة)

إن كل شىء حى له مهمة فى الحياة الدنيا . . فإذا انتهت هذه المهمة خرج من الحياة الدنيوية وأصبح ميتا . . الشجرة مثلا إذا أعطت كل ما فيها من ثمار تموت وتخرج من الحياة لأنها أدت مهمتها . . وكل حيوان له مهمة فى الحياة يؤديها ثم يخرج

إلى عالم الموت . . وكذلك الإنسان له مهمة فى هذه الحياة . . وهى فترة الاختبار التى قدرها الله له . . وبعد أن يختبر مرة ومرات تنتهى الحياة بالنسبة له ، لأن المهمة التى جاء من أجلها إلى الحياة قد إنتهت .

ونعود لنتساءل : إذا كان كل ما فى الحياة الدنيا حى . . فأين هو الميت ؟



أسماء الذات .. وثبوت الصفات

وقبل أن نجيب على هذا السؤال لابد أن نقول : إن من أسماء الله الحسنى المحيي والمميت . . أسماء الله سبحانه وتعالى تدل على الثبوت وعلى الحدوث معا . . فالله سبحانه وتعالى له صفة فى ذاته . . وصفة فى متعلقات هذه الذات . . فإذا قلنا أن الله هو الرزاق . . فإنه سبحانه رزاق قبل أن يوجد من يرزقه . . أو قبل أن يكون هناك مخلوق يرزقه الله . . لأنه سبحانه رزق أول مخلوق له بصفة أنه رزاق . . ولو أنه سبحانه لم يكن رزاقا قبل أن يخلق من يرزقه . . فكيف استطاع أن يرزق خلقه لحظة خلقهم ؟

إن الله خالق قبل أن يخلق . . لأنه بصفته سبحانه « الخالق » قد خلق . . وصفة الخالق لله موجودة قبل أن يوجد مخلوق واحد . . فالصفة موجودة فى الذات أزلا . . والحياة خلق والموت خلق . . ونحن نعيش خلق الحياة وخلق الموت . . نعيش خلق الحياة فى هذه الدنيا ، وخلق الحياة الآخرة . . ونعيش خلق الموت قبل أن نأتى إلى هذه الدنيا . . وبعد أن نغادرها حتى نبعث . . ومادام الله سبحانه وتعالى وحده هو الخالق . . فكل شىء يأتى إلى الحياة هو من خلق الله . . وكل شىء يخرج من هذه الحياة إلى الموت فهو إلى الله . . وإنتقال الشىء من عالم الحياة إلى عالم الموت . . هو ما يطلق الله عليه الموت والحياة .

كنـا .. قبل أن نكون

قبل أن نأتى إلى هذه الحياة كنا مخلوقين .. بدليل أن الله سبحانه وتعالى كلمنا وأشهدنا على أنفسنا وأخذ علينا العهد .. ولكننا كنا مخلوقين فى عالم الموت .. ثم انتقلنا بأمر الله سبحانه وتعالى وإذنه إلى عالم الحياة .. فأصبحنا بعد أن كنا أمواتا .. أحياء .. كيف ؟

لقد انتقلنا من عالم الموت إلى عالم الحياة الدنيا .. وكل من فى هذه الحياة الدنيا ـ كما قلنا ـ حى .. مجرد انتقالنا من عالم الموت إلى عالم الحياة جعلنا أحياء .. وعندما نغادر هذه الدنيا ننتقل مرة أخرى من عالم الحياة إلى عالم الموت .. ثم نبعث فننتقل من عالم الموت إلى عالم الحياة .

ليس معنى ذلك أن الموت عدم .. ولكن معناه أننا انتقلنا من عالم له قوانينه ، إلى عالم آخر له قوانينه .. هذا الإنتقال لا يتم لأى خلق من خلق الله إلا بإذن الله سبحانه وتعالى ..

لقد انتقلنا من عالم الذر إلى عالم الحياة .. أى كنا أمواتا وأصبحنا أحياء .. ثم انتقلنا من عالم الحياة الدنيا إلى عالم البرزخ .. فعدنا مرة أخرى أمواتا .. ثم نعود مرة أخرى إلى عالم الحياة ساعة البعث للحساب .

إن أحداً لا يستطيع أن يقول .. اننا فى حياة البرزخ ليس لنا إدراك ، لا . إن لنا إدراكا .. لكن من نوع خاص .. إننا

ندرك أشياء ونعقل أشياء . . وحين يحتضر الإنسان تنكشف عوالم الغيب ويرى ما كان مستوراً . . فيطلب إلى الله أن يعود إلى الدنيا مرة أخرى . . لأنه رأى الجزاء . . رأى الجنة والنار . . رآهما يقينا . . إقرأ قوله سبحانه :

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾

(سورة المؤمنون)

إن الإنسان فى هذه اللحظات يعلم يقينا أين مصيره ـ مؤمنا كان أو كافرا ـ يعرف إن كان مقعده فى الجنة أو مقعده فى النار والعياذ بالله . . إنه هو يدرك أن مشوار حياته لم ينته بموته . . بل يعرف يقينا أنه ذاهب إلى عدم بعده وجود . . وإلا لما طلب من الله أن يرجعه ليعمل عملا صالحا . . إمتداد الوجود هذا يأتى يقينا ونحن فى عالم الموت . . وتأتى للإنسان أشياء كثيرة يقينية . . وهو يعلم مثلا أنه لا هروب من قدر الله . . وأنه سيعود إلى الحياة مرة أخرى .

المنتحر .. والخلود فى النـار

إن الموت والحياة كما قلنا نقيضان . . لا يستطيع أى إنسان أن يجمع بينهما . . ولا أن يخرج نفسه من أحدهما إلى الآخر . . قد يقول قائل : إن الإنسان لا يستطيع أن يخرج نفسه من الموت إلى الحياة . . تلك حقيقة نعرفها جميعا ولا يستطيع أحد أن يجادل فيها .

ولكن الإنسان يستطيع أن يخرج نفسه من الحياة إلى الموت بأن ينتحر . . يطلق على نفسه الرصاص . . أو يلقى بنفسه من ارتفاع شاهق أو جبل عال . . أو يقذف بنفسه فى البحر .

ونقول لمن يدعى هذا : ولماذا الخلط بين الموت والقتل ؟! قاتل نفسه محكوم عليه أن يكون خالدا مخلدا فى النار لماذا ؟ لأن الإنسان لم يخلق نفسه فلماذا يتصرف فيها ؟! الله سبحانه وتعالى هو الذى خلقه . . وهو بجسده وروحه وحياته ملك لله . . فإذا انتحر فإنه يكون بذلك قد أهدر ما لا يملكه . . والذى يقتل نفسا وهو غير متعمد فجزاؤه الدية . . أما الذى يقتل نفسا عامدا متعمدا بغير نفس أو فساد فى الأرض . . فجزاؤه جهنم خالدا فيها . . والمنتحر قتل نفسه عامدا متعمدا . . فحق عليه العقاب . .

والله سبحانه وتعالى يريدنا أن نعلم أن الحياة بالنسبة

للإنسان سبقها الموت . . أى ان الإنسان لا يستقبل هذه الحياة إلا إذا أخذ نقيضها قبلها وهو الموت . . ليعرف أن هذه الحياة ستنتهى إلى ما كانت عليه قبل أن تبدأ دورتها ، فإن كان قد سبقها الموت . . فإن الموت سوف يتبعها .

وهناك فرق بين الحياة فى نظرنا والحياة فى واقعها . . فالحياة فى نظرنا قد تكون لهواً ولعباً وتفاخراً بالأموال والأولاد . . هذا قد يكون مفهومنا بالنسبة للحياة الدنيا . ، ولذلك نمضى فيها لنحصل على ما نشتهى . . ولكن الله سبحانه وتعالى لم يخلق لنا الدنيا لمثل هذا العبث ـ للعب واللهو ـ بل جعلها لهدف يريد سبحانه تحقيقه . . واقرأ قوله سبحانه :

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّاتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا إِن كُنَّا فَاعِلِينَ ﴿١٧﴾﴾

(سورة الأنبياء)

إذن فالله تبارك وتعالى قد حدد مهمة لكل حى . . هذه المهمة هى الهدف من الحياة . . بل هى الهدف من الخلق كله . .

إنك إذا أردت أن تعرف مهمة الشىء فاسأل الذى خلقه أو صنعه لماذا خلقه ؟ تماما كما نفعل مع الصانع من البشر إنه يحدد هدف صنعته أولا . . هذه غسالة هدفها أن تريح ربة البيت من تعب الغسيل . . لها دورة معينة ونظام معين . . وبعد أن

حدد الصانع الهدف . . بدأ يكوّن الآلة التى تحقق له هذا الهدف . . ويحدد طريقة تشغيلها وطريقة صيانتها إذا أصابها عطب . . فإذا حدث فيها ما جعلها لا تؤدى مهمتها . . أسرعنا إلى الكتالوج الذى وضعه الصانع لنعرف أين العطب . . ولو أننا تركنا الصانع وبدأنا نصلح الآلة على هوانا . . فإننا بذلك سنفسدها بدلا من أن نصلحها .

والعجيب أننا نصنع ذلك مع كل صنعة بشرية . . سيارة ، ثلاجة . . الخ لكننا حين نحاول صيانة حياة الإنسان بمنهج صانعه ـ وهو أدرى بما صنع ـ نستورد المناهج التى تفسده ، ولا نصلحه بمنهج خالقه الذى وضعه لحياته . . لقد أزحنا هذا المنهج جانبا مُدَّعين أننا أقدر على إصلاح البشرية من الله ! ! والله تبارك وتعالى يبين لنا ذلك فى قوله تعالى :

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (١١) أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ (١٢) ﴾

(سورة البقرة)

وإذا أردنا أن نجمل ما فصلنا فى هذا الفصل نقول :

أن الله سبحانه وتعالى . . خلق الإنسان ليخلد فى الحياة . . وأن كل من نفخت فيه الروح منذ عهد آدم إلى يوم القيامة أعطاه الله الخلود . . إما فى الجنة فينعم ، وإما فى النار فيعذب . . ولكنه خالد . . فلا أحد فى هذه الحياة الدنيا يموت

ثم لا يبعث . . ولا أحد يبعث ولا يحاسب . . ولا أحد يحاسب ولا يدخل الجنة أو النار . .

وأن الله سبحانه وتعالى جعل بداية مراحل الحياة بالموت . . فنحن جئنا بعد موت فى عالم الذر . . فإذا انتقلنا من الموت إلى الحياة . . فلا أحد يستطيع ذلك إلا الله سبحانه وتعالى . . فهو وحده خالق الموت والحياة . . وهو وحده القادر على أن يبعث من فى القبور . . ولا توجد قوة فى هذه الدنيا . . ظاهرة أو خفية أفرادا أو جماعات . . تستطيع أن تنقل الإنسان من الموت إلى الحياة . . أو أن توقف نقله من الحياة إلى الموت .

إننا جميعا وكل من فى هذا الكون عاجزون عن أن نهب الحياة أو أن نمنع الموت . . والحياة والموت نقيضان . . فمن هو فى الحياة ليس بميت . . ومن هو فى الموت ليس بحى . . كل له قوانينه وعالمه .

كما بينا أن هناك موتا وهناك قتلا . . كلاهما مختلف عن الآخر . . ثم تحدثنا عن هدف خلق هذا الكون . . لماذا خلقه الله سبحانه وتعالى ؟ وما هو الهدف منه . . وقلنا أن صانع هذا الشيء هو الذى يحقق الهدف منه . . ولكن الإنسان يعتقد أنه يستطيع أن يحدد هدفا غير الذى خلق من أجله . . بدعوى أن ذلك إصلاح فى الارض بينما هو إفساد . . ولكن لماذا خلق الله الحياة الدنيا ؟ هذا ما سنتحدث عنه بالتفصيل فى الفصل التالى إن شاء الله .

الفصل الخامس



الحيـــاة الدنيـــا

خلق الله سبحانه وتعالى الكون لهدف
محدد وأعلمنا به .. حتى نعرف لماذا تم
الخلق ؟ وما هو الهدف .. وما هى النهاية ؟
يقول جل جلاله :

﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾ ﴾

(سورة الذاريات)

إن الهدف من خلق هذا الكون هو عبادة الله وتسبيحه وتمجيده وتعظيمه ، ولكن الحق سبحانه وتعالى لم يحدد بالإسم هنا إلا (الجن والأنس) .. بينما ترك باقى مخلوقات الكون بلا تحديد .. لماذا ؟

لأن هذين النوعين من المخلوقات هى التى أعطاها الله حق الإختيار .. إنها تستطيع أن تؤمن ، وتستطيع ـ والعياذ بالله ـ أن تكفر .. تستطيع أن تطيع ، وتستطيع ـ والعياذ بالله ـ أن تعصى .. أما باقى أجناس الكون فهى مقهورة على الطاعة لا تستطيع أن تعصى .. وهى مسبحة لله سبحانه وتعالى .. لا تغفل عن تسبيحه ولا تفتر .. وإقرأ قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۩ (١٨) ﴾

(سورة الحج)

لقد أطلقت الآية الكريمة السجود لكافة الكائنات .. فى الأرض وفى السماء .. لا يتخلف منها أحد عن الخشوع والطاعة والذكر والتسبيح ، ولكن الإنسان لم يحظ بهذا الإطلاق ، وإنما كان هناك قسمان .. قسم يطيع ويؤمن ، وقسم يعصي ويكفر .. حدثت هذه القسمة عندما ذكر الناس فقط .. لماذا ؟ لأن الله تبارك وتعالى - كما قلنا - أعطى الإنس وكذلك الجان حرية الاختيار ..

لقد خلق الله هذا الكون العظيم لكى يخدم الإنسان - الخليفة فى الأرض - فأطاع كل الكون خالقه .. وتخلف عن ذلك كثير من الناس الذين جعل الله لهم السيادة على كونه !

لقد عرض جل جلاله الأمانة - وهى حرية الاختيار - على كل أجناس الكون .. ولكنها أشفقت على نفسها من تحمل هذه التبعة وقالت يارب : نريد أن نكون مقهورين على الطاعة .. يقول الله سبحانة وتعالى :

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا

﴿ وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ ۖ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ ﴾

(سورة الأحزاب)

وكان هذا هو الاختيار الأول والأخير لكل أجناس هذا الكون .. أما الإنسان فإنه اختار تحمل الأمانة .. لأن الله أراد أن يأتيه عن حب وليس عن قهر .. يكون قادرا على الكفر ، ولكنه يؤمن حبا فى الله .. ويكون قادرا على المعصية ، لكنه يطيع حبا فى الله .. فالجن والإنس هى المخلوقات التى تثبت صفة المحبوبية لله .. فتختار اتباع منهجه بإرادتها .. وعن حب لا عن قهر .. فتسبح وتسجد وتكبر وتصلى وتدعو الله .. إعلانا لحبها لله سبحانه وتعالى .

الحق تبارك وتعالى يقول : « وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون » ولكى تكون العبادة حقه يجب أن تشمل كل حركة الحياة .. بمعنى أن تكون جميع أعمال الإنسان معبرة عن حبه لله .. وكل حركة فى الحياة هى الدليل الحى على هذا الحب .. المنهج دليله ، والإخلاص رائده ، وطريقه لا عوج فيه .. لا يراه الله حيث نهاه ، ولا يفتقده حيث أمره ..

العبودية الحقة .. وكيف تكون ؟

الناس تعتقد أن العبادة هى أركان الإسلام الخمسة : (شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله . . وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة . . وصوم رمضان وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلا) نقول أن هذه هى الأسس التى يقوم عليها الدين .

لقد ارتضى لنا ربنا هذا الدين القويم لنكون على صلة به دائمة حتى لا يستحوذ علينا الشيطان . . وحتى نتعرض لنفحاته وعطائه وفيوضاته فى كل وقت وحين . . فالصلاة بعد الصلاة تعطينا تلك الشحنة الإيمانية التى تقينا من الانحراف عن المنهج وتشدنا إلى الله تبارك وتعالى . . وكذلك الصوم والزكاة والحج . . كل عبادة منها هى نور من الله . . كلما أحسسنا بفتور الهمة وظلمة النفس لجأنا إلى قبس من نور الله يعيد إلينا توازننا الإيمانى . . كما تفعل عندما تضعف البطارية فتضعها على مصدر الكهرباء القوى لتشحن من جديد . . والإسلام يشمل منهج الحياة كلها . . أنه يغطى كل حركة فى الحياة . .

وأنا لا أريد أن أدخل فى جدل عقيم مع الذين يقولون إن أركان الإسلام هى الإسلام . . وأنك مادمت تصلى وتزكى وتصوم وتحج . . فقد ضمنت الله إلى جوارك . . فافعل

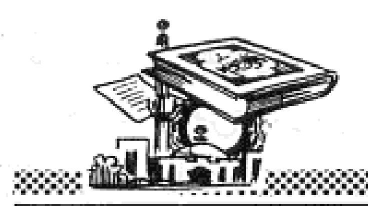
ما شئت واترك حركة الدنيا دون ضوابط إيمانية تحكمها !

أقول لهؤلاء جميعا لن أناقش ، ولكنى فقط سأتحدث عن فرض واحد وهو الصلاة .. فلكى نقيم الصلاة لابد لنا من مقومات حياة تمكننا من الوقوف بين يدى الله ..

إن أول ما يجب أن نفعله للوقوف بين يدى الله ولتصح الصلاة هو أن نستر عورتنا .. ولا أريد أن أقول أريد ثوبا أو غير ذلك .. وإنما أقول أريد قطعة من القماش نستر بها عورتنا .. هذه القطعة من القماش تحتاج إلى القطن ، والقطن يحتاج إلى من يزرعه .. والزرع يحتاج إلى حرث وبذور ورى .. قد تكون البذور موجودة عندنا ، وقد تكون غير موجودة .. وفى هذه الحالة لابد أن نستوردها من الخارج .. ولابد لكى نحرث الأرض فلابد أن يكون هناك محراث من الصلب .. ذلك المحراث البسيط الذى كان يستعمله الإنسان الأول ..

كذلك نحن محتاجون أن نبحث فى الجبال عن خام الحديد .. وأن يصهر ليصنع منه هذا المحراث .. ومحتاجون إلى حداد يأخذ هذا الحديد المصهور ويصنع منه سلاحاً حادا .. ثم من يحضره لنا حتى نستخدمه .. ثم بعد ذلك عندما ينضج القطن فإننا فى حاجة إلى من يجنيه .. ثم من يحمله إلى المحلج ، ثم من يحمله إلى المغزل ليصبح خيوطا .. ثم إلى النساج ليصبح قماشا ، وبعد ذلك إلى التاجر الذى سيبيعه لنا .. كل هذه المراحل لابد منها حتى أقف أمام الله سبحانه مستور العورة لتقبل صلاتى .

من يعد لنا الطعام ؟



إننى لكى أقوى على أداء الصلاة .. أنا محتاج لما يقيم أودى .. للقمة أكلها حتى أستطيع الركوع والسجود .. لقمة تعطينى القوة لأفعل ذلك .. إن هذا الرغيف الذى أشتريه من البقال وراءه قصة طويلة من العمل ابتداء من الذى زرع القمح ، إلى الذى طحنه وجعله دقيقا ، وإلى الذى عجنه ثم خبزه ، وإلى الذى جاء به إلى البقال لأشتريه ..

وهكذا نرى أن ما نحتاجه لنؤدى الصلاة هو كمية عمل هائلة .. فإذا جلسنا جميعا فى المساجد نصلى ولا نفعل شيئا غير ذلك .. فمن الذى يأتينا بقطعة قماش نستر بها عوراتنا وبرغيف خبز نقيم به حياتنا ؟! إن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب .. ولذلك فإن العبادة تشمل كل حركة فى الكون .. ومادام الله سبحانه وتعالى يريد الإنسان عابدا .. فهو يريده عابدا فى بيته .. عابدا فى مكتبه .. عابدا فى المسجد .. عابدا فى الطريق .. عابدا فى كل حركة حياته .. الإسلام حث على الآداب العامة وجعل أدبا حتى للطريق ..

إن الله سبحانه وتعالى وزع الثواب على حركة الحياة كلها .. لأن المنهج يشمل كل هذه الحركة .. فجعل ثوابا لمن يزور المريض ، ومن يحكم بين الناس بالعدل ، ومن يحسن معاملة جاره ، ومن يرفع الأذى عن الطريق ، من يعين عاجزا

على عبور الطريق ، ومن ينفق على بيته وأولاده ، ومن يقضى حاجات الناس ، ومن يزيل ظلما ، وصاحب الكلمة الطيبة ، وصاحب النصيحة ، والساعى فى سبيل رزقه ورزق أولاده ، ومن ينهى عن المنكر ويأمر بالمعروف .. كل هذا وعشرات الألوف من الأعمال لا تدخل فى أركان الإسلام ، ولكن عليها ثواب عظيم .

إننا حين نقصر أعمالنا على أسس الإسلام الخمسة .. نحرم أنفسنا من ٩٠٪ من الثواب الذى أعده الله لنا على حركة الحياة .. ومادام الحق سبحانه قد قال « وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون » .. فلابد أن كل منهجه عبادة .. والمنهج يحكم حركة المؤمن فى الكون .. فكل حركة فى الكون عبادة مادام قد قصد بها وجه الله .





المنهج قبل الخلق

الله سبحانه قبل أن يخلق الإنسان وضع له المنهج وحدد له مهمته فى الحياة . . لأن كل من يصنع شيئا . . لابد - كما قلنا - أن يحدد الهدف منه أولا . . ومادامت الحياة هى صلاحية الشيء لمهمته . . فلابد أن نعرف المهمة التى خلقنا الله من أجلها . . لقد وضع لنا خالقنا تبارك وتعالى قانون حياتنا . . لنكون صالحين لتأدية المهمة التى خلقنا من أجلها .

ومن العجيب والغريب حقا أن تكون آفات الكون مصدرها الإنسان . . لأنه مختار وله عقل يختار به بين البدائل . . أما المخلوقات الأخرى المقهورة على الطاعة فلا يتأتى من إفساد .

إنها تؤدى مهمتها التى خلقت من أجلها قهرا دون اختيار . . ولكن لذى يفسد الحياة ويفسد الكون هو ما يتدخل فيه الإنسان باختياره . .

الله تبارك وتعالى يريدنا فى الحياة الدنيا . . أن نتبع منهج من خلقنا . . فنكون بذلك قد أدينا مهمتنا كباقى أجناس الكون . . يقول سبحانه وتعالى :

﴿ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ ﴾

(من الآية ٥٩ سورة النساء)

وإذا كان ما فى الكون من جماد ونبات وحيوان . . مسخر لمهمته وهى خدمة الإنسان . . فما هى مهمة الإنسان ؟ مهمته أن يعبد الله . . يقول الله تبارك وتعالى فى الحديث القدسى :

« يا ابن آدم خلقت هذا الكون لك وخلقتك لنفسى فلا تنشغل بما هو لك عما أنت له » .

ولكن ما هو جوهر العبادة ؟ هل يريد الله منا أن نقول سبحان الله طوال اليوم وكفى ؟ لا . . عبادة الله هى شغل الإنسان بالمهمة التى خلقه الله من أجلها . . إن كل حركة فى الكون عبادة . . ونلجأ إلى قواعد الإسلام الخمسة لشحن (البطارية) الإيمانية الموجودة فى داخلنا . . ولذلك يكون معنى : « يعبدون » . . هى يطيعون الله فى كل المنهج .



مهمة الإنسان فى الحياة

كل أجناس الأرض من نبات وجماد وحيوان مسخرة لك أيها الإنسان ، خادمة تطيعك فى كل ما هو مطلوب منها .. مهمتها فى الدنيا أن تخدم المؤمن والكافر .. الطائع والعاصى حتى تقوم الساعة .. فيفقد الإنسان هذه الميزة وينتهى هذا التسخير .

الشمس فى الدنيا لا تعطى أشعتها للمؤمنين فقط .. والأرض لا تخرج الزرع لمن آمن وتمنعه عمن كفر .. أجناس الأرض تنفعل للإنسان وبالإنسان ، بصرف النظر عن عقيدته وإتجاهه نحو ربه .. فمن يحسن الأخذ بالأسباب تعطيه الأسباب .. لا فرق بين من قال لا إله إلا الله .. ومن رفض أن يقولها .

أما فى الآخرة فالوضع يختلف .. الأجناس تخدم المؤمن وحده ولا تخدم الكافر .. لكن عندما يحاول الكافر أن يكذب على الله ويقول أطعت .. تقول قدماه لا يا ربى .. لقد كان يسير بى كل يوم إلى الخمارة .. وتقول يداه لا ياربى .. لقد كان يبطش بى بالضعفاء .. ويقول لسانه لا ياربى .. لقد كان ينطق بى كلمة الكفر .. وهكذا تنتهى سيطرته حتى على جسده .. وإقرأ قوله سبحانه :

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم

بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾

(سورة فصلت)

إذن إختيار الإنسان وخدمة أجناس الكون له .. هو للناس كل الناس فى الدنيا .. ولكن فى الآخرة هو للمؤمنين وحدهم .

الكافر إذا أراد أن يهرب يوم القيامة لا تتحرك قدماه .. وإذا أراد أن يبتعد عن النار قادته قدماه إلى النار رغما عنه .. وإذا أراد أن يشرب جاءه ماء يغلى يقطع أمعاءه .. وإذا أراد أن يلبس .. فصلت له ملائكة النار رداء من نار ملتصق على جسده .

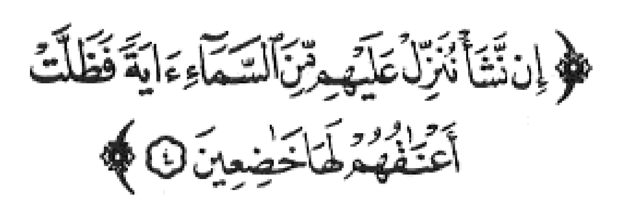
أجناس الكون لا تخدم الكافر يوم القيامة .. بل تلعنه وتحرقه وتعذبه .. والله سبحانه وتعالى كرم الإنسان بأن جعل له حياة أخرى .. حياة لا تعطى بالأسباب .. ولكن تعطى من الله سبحانه وتعالى مباشرة .. فيها نعيم لا يفوت الإنسان ولا يفوته الإنسان .. الحياة التى تناسب فى عطائها الإنسان المؤمن الذى أعطاه الله السيادة فى الكون .. حياة لا تنتهى فليس فيها موت .

وعمر الإنسان لا ينتهى بالموت بعد الحياة الدنيا .. ولكن له حياة أخرى هى المقصودة .. ولكن من يصل إلى هذه الحياة

وإلى هذا النعيم ؟ إنه من يؤدى مهمته فى الدنيا التى خلقه الله من أجلها .. وهى طاعة الله فى إفعل ولا تفعل .. تلك الطاعة هى التى تقود الإنسان إلى الخلود فى النعيم .

لقد خلق الله هذا الكون ليطاع فيه .. ويسبح الكون كله بحمده .. فإذا انضممت إلى أجناس الكون وكنت عابدا لله إنسجمت مع هذه الأجناس فى الحياة الدنيا .. ثم أعطاك الله سبحانه الخلود فى الآخرة .

ولكن إذا كان الله سبحانه وتعالى قد خلقنا لنعبده .. فهل معنى ذلك أن الله ـ سبحانه ـ فى حاجة إلى هذه العبادة ؟! ونقول : إن الله مستغن بذاته عن جميع خلقه .. لا تضره معصية ، كما لا تنفعه طاعة .. لقد خلقنا مختارين .. فمن شاء فليؤمن .. ومن شاء فليكفر .. ليأتيه من شاء عن حب لا عن قهر .. يقول الحق جل جلاله .



(سورة الشعراء)

قوانين الله .. وعقل الإنسان

ماذا فعل الإنسان بعد أن جعله الله سيد هذا الكون وأخضع كل أجناس الكون له ؟ هل أخذ الحياة الدنيا بمفهومها الصحيح وانطلق يطبق منهج الله ؟ لا . . ترك منهج الله وأخذ يشرع لنفسه . . فملأ الشقاء الكون من القوانين البشرية التى اتخذها الناس منهجا لحياتهم بدلا من منهج الله . . وشقى الإنسان لأنه ترك المنهج واتبع عقله .

وهناك فرق بين أن يضع لك منهج حياتك عليم حكيم مطلع على كل شيء . . وبين أن يضعه لك إنسان محدود القدرة والفهم والعمر . . يعرف أشياء وتغيب عنه أشياء .

إننا نرى أن القوانين الإلهية . . ثابتة لا تتغير ولا تتبدل ، لأن الذى وضعها يعلم ما سيحدث فى الكون كله حتى قيام الساعة ، فلا يفاجئه حدث ، ولا يواجه شيئا لم يكن فى الحسبان ، لأن الله سبحانه عليم محيط بكل شيء .

ولكن القوانين البشرية ـ لقصورها ـ نراها وقد امتلأت بالتعديلات والتغييرات ، لا تمر سنوات قليلة حتى نفاجأ بأن الأمور التى وُضِعَ القانون ليعالجها لم تحط بها ، وأن أشياء جديدة ظهرت لم نكن نتوقعها ، فتحدث المعاناة ونقوم بتعديل القانون . . ولكن الذى يعدلونه هم بشر أيضا . . ولذلك هم

يعرفون أشياء وتغيب عنهم أشياء ، فيحتاج القانون إلى تعديل بعد سنوات قليلة . . وهكذا تظل البشرية تعانى من تعديل القوانين حتى يأتى أمر الله . .

إن الشقاء فى الكون ناتج عن أننا لم نقم بالمهمة التى خلقنا من أجلها . . وهى عبادة الله واتباع منهجه الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . . لأنه تنزيل من حكيم حميد .

لقد تركنا المنهج الذى فيه صلاحنا وأخذنا نعدل ونتفلسف ويأخذنا الغرور البشرى ، ونعتقد أننا أقدر من الله سبحانه وتعالى على إصلاح هذا الكون . . فأفسدنا كل شىء . . وأضعنا حياتنا . . أضعنا الهدف منها . . وهذه هى الجريمة الكبرى التى ترتكبها الإنسانية فى حق نفسها . . وحق خالقها .

لقد انحرفنا عن الهدف الذى خُلِقَ هذا الكون من أجله . . وخُلِقْنَا من أجله . . وأصبحت حياتنا عبثا . . ومادمنا قد أضعنا الحياة الأولى ، فقد ضاعت الحياة الثانية . . فالحياة الأولى هى التى تقودنا إلى نعيم الحياة الحقيقية فى الآخرة إذا نحن أدينا مهمتنا فى الحياة الدنيا كما أمرنا الله . . ولكن إذا أضعنا الأولى عبثا . . وأخذنا نتفلسف ببشريتنا ونحل الحرام ونحرم الحلال . . ونصف الذين يتبعون منهج الله بأنهم متخلفون متأخرون ، مع أن التخلف الحقيقى هو فى الابتعاد عن منهج الله . . إننا إن فعلنا ذلك نكون قد أضعنا الآخرة أيضا .

الحياة من ذكر وأنثى

الله سبحانه وتعالى حين خلق هذه الحياة وضع لها قوانينها . ومن هذه القوانين أن الحياة لا تنشأ إلا من ذكر وأنثى . . وأن كل مخلوق منهما خلق خلقا مستقلا عن الآخر . . الإنسان . . النبات . . الحيوان وكل أجناس الأرض مخلوقة من ذكر وأنثى . . والذكورة والأنوثة ـ فى تلك المخلوقات ـ تكون مستقلة فى مخلوقين . . وليس هناك شيء ينشأ عن شيء آخر كما تقول نظرية داروين . . واقرأ قول الحق سبحانه :

﴿ وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾

(سورة الذاريات)

لكن هناك زوجية كانت موجودة . . ولكن لم نكن نعرفها وعرفناها أخيرا . . عرفنا فى الكهرباء أنه لابد من وجود سالب وموجب حتى تنطلق الشرارة . . ولو كان القطبان سالبين أو موجبين لا تتواجد الكهرباء أبدا ، كما عرفنا أن السحاب يتكون من ذكر وأنثى . . عندما يلتقيان ينزل المطر . . وعرفنا أيضا أن فى الذرة يوجد سالب وموجب . . وهناك أشياء لم نعرفها بعد . . ولكننا حينما يكشف الله لنا أسرارها سنعرف أن كل أجناس هذا الكون بلا استثناء من ذكر وأنثى .

لكن . . هناك قضيتان أساسيتان حكم الله سبحانه

وتعالى فيهما ، وطلب منا ألا نخضعهما لعقولنا أو نفكر فيهما . . لأن العقل لا يمكن أن يصل فيهما إلى علم . . القضية الأولى هى أنكم لن تعرفوا كيف نشأ الكون . . والقضية الثانية لن تعرفوا كيف خلقتم .

ونقول لأصحاب النظريات الخاصة ببدء الخلق وكيف كان شكل الكون قبل بدء الحياة . . مم استقيتم هذه النظريات وممن أخذتم هذه المعلومات ؟! أشهدتم خلقهم . . أم جاءكم من العلم ما لم يطلع عليه الآخرون ؟! إن الذين يقولون إن الإنسان أصله قرد . . مخطئون . . وكل من يتعرض للخلق وأصل الكون مخطىء مهما جمع من أدلة زائفة لا تتعدى الحدس والتخمين .

ونوجز ما فصلنا فنقول : إن الله سبحانه وتعالى خلق هذا الكون ليكون ساجدا مسبحا له سبحانه . . وأن الكون كله طائع لله عن قهر . . ولكن الله تبارك وتعالى يريد أن يُعْبَد عن محبوبية .

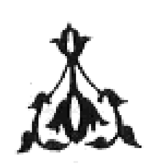
وأن الله سبحانه وتعالى قد وضع منهجا . . جاءت به الرسل يشمل كل حركة فى الحياة ، وأن العبادة ليست هى الصلاة والزكاة والصوم والحج فقط . . ولكن كل حركة من حركات الحياة هى عبادة وهى منهج .

والله يطلب منا التحرك فى الحياة وعمارة الأرض . . ولكى نقيم عبادة الصلاة مثلا لابد من حركة حياة واسعة . . تشمل

جوانب كثيرة من الحياة . . فإن الله تبارك وتعالى لا يريدنا أن نقول سبحان الله طوال الليل والنهار . . ولكن يريدنا أن نعمل ونتحرك . . وأن ما يتم بدونه الواجب فهو واجب .

ولقد أفسد الإنسان فى الأرض باختياره . . فترك قوانين الله . . وأخذ يضع القوانين لنفسه . . وأخذت البشرية الشقاء من قوانين البشر . . وابتعد عن المنهج ليضع منهجا بعقله . . وأخذ يجادل فى الخلق وفى قضايا لا يستوعبها عقله . . لأننا مهما جادلنا فى نشأة الكون وخلق الإنسان . فلن نصل إلى حقيقة . .

هذا عن حياتنا الدنيا المحدودة بأعمارنا القصيرة ، أما الحياة الأخرى . . الحياة الحقيقية التى لن يعقبها موت أو فناء . . حياة الخلود . . فهى موضوع الفصل التالى .



الفصل السادس



الحيـاة الآخـرة

قبل أن ننهى الحديث عن الحياة والموت . . لابد أن نتحدث بالتفصيل عن الحياة الآخرة . . تلك هى الحياة الحقيقية للإنسان . . فالحياة الدنيا هى دار اختبار . . لا يلبث الإنسان أن يغادرها مهما عَمَّر فيها . . ثم تأتى بعدها حياة خالدة للإنسان .

الحياة الدنيا يسبقها موت ويعقبها موت . . والحياة الآخرة يسبقها موت ويعقبها خلود . . الحياة الدنيا عالم أغيار لا يثبت الإنسان فيها على حال . . القوى فيها يصبح ضعيفا . . والغنى فيها يصبح فقيرا . . وصاحب الجاه والسلطان يصبح لا حول ولا قوة له . .

أما الحياة الآخرة فلها صفة الثبات فى كل شىء . . فى نعيمها ، وفى عذابها ، وفى متعها وفى كل ما تعطى . . والإنسان قبل أن يأتى إلى الحياة الدنيا كان فى فترة موت فى عالم الذر . . ولكى يأتى إلى الحياة الآخرة لابد أن يسبق ذلك فترة موت فى عالم البرزخ . . والبرزخ هو الحاجز بين الموت والبعث . . بين الدنيا والآخرة . . فلا عودة بعده إلى الدنيا . .

ويجب أن نعلم أن الإنسان سواء ـ فى عالم الذر أو فى الحياة الدنيا أو فى عالم الموت أو فى الآخرة ـ مسجل فى سجلات دقيقة عند الله سبحانه وتعالى . وأن أى مرحلة من هذه المراحل لا تمر

هكذا أو تمضى بغير نظام أو ترتيب دقيق . . الله سبحانه وتعالى عنده سجل غاية فى الدقة لكل ما خلق . . فلا تخفى عليه خافية فى هذا الكون ، أو يَعْزُبُ عنه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ، كل ذلك فى كتاب واضح هو أم الكتاب . . اللوح المحفوظ . واقرأ قوله سبحانه :

﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ ﴿١٢﴾ ﴾

(سورة يس)

إن هناك سجلاً محفوظاً عند الله لكل واحد منا . . يشمل كل أحداث حياته ويكون شاهدا عليه يوم القيامة . . شاهدا عليه كيف ؟ شاهدا عليه (بالصوت والصورة) . . يرى أحداث حياته كلها بالصوت والصورة كما وقعت له ، ويشاهدها بكل دقة ، بحيث لا يستطيع أن ينكر شيئا مما حدث . . ليجعل الله سبحانه وتعالى الإنسان شهيدا على نفسه يوم القيامة . . واقرأ قوله جل جلاله :

﴿ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ ﴾

(سورة الاسراء)

هذا السجل وهذه الحياة المسجلة لحياة كل إنسان تبلغ من الدقة كأننا نشاهد حياتنا الدنيوية . . ونتعجب من دقة التسجيل . . ذلك أن هناك أشياء وتفاصيل نسيناها نحن نجدها مسجلة فى هذا الكتاب . . الله سبحانه وتعالى يقول

عن دقة التسجيل :

﴿ أَحْصَاهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ ﴾

(من الآية ٦ سورة المجادلة)

إننا من دقة التسجيل أيضا نحس بعظمة الحساب ، وبأن الله سبحانه وتعالى لا يفوته شيء . . ولذلك لابد أن نلتفت إلى قول الله سبحانه :

﴿ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾

(من الآية ٤٩ سورة الكهف)

إن التفاتنا إلى هذه الآية الكريمة يجعلنا نخجل من ارتكاب المعصية ونحن نعلم أنها تسجل علينا وأنها ستعرض يوم المشهد العظيم . . أمام الله سبحانه وتعالى وتشهدها الخلائق كلها وعلى مرأى ومسمع منها . .

العقل .. لا والقدرة .. نعم

وقد يتوقف من لا يؤمن بالغيب قائلا : أمعقول هذا !؟ أمعقول أن يؤتى بكل منا من بين بلايين البشر التى عاشت وستعيش على الأرض منذ بداية الخلق حتى قيام الساعة ؟! أمعقول أن يؤتى بكل منا هو بذاته .. مع أن الأرض تأكل الأجساد .. وتمحوها ولا يبقى من الإنسان شيء ؟!

نقول إننا حين نتحدث عن قدرة الله لا نحكم العقل أبدا لأن الله سبحانه وتعالى فوق قدرات العقول ، وليس كمثله شيء ، وكل صفاته وقدراته هى أيضا فوق قدرات العقول .. ولكن كل إنسان منا مخلوق بميزان دقيق جدا لا يختل أبدا ولا يضيع .

الله سبحانه وتعالى ـ رحمة بعقولنا ـ أودع فى هذا الكون من الأسرار التى كشفها لنا ما يقرب من عقولنا قضايا الغيب الهائلة .. حتى لا نضل ونشقى .

الإنسان فى أصله نطفة ، والبشرية كلها كانت فى ظهر آدم .. ذلك أن هذه النطفة فى غاية الدقة .. حتى أنها لا ترى بالعين المجردة .. ويكفى لتعرف مدى دقة الخلق .. أن نتصور أن البشرية كلها ـ منذ خلق آدم إلى يوم القيامة ـ كانت موجودة فى ظهره .. هذه هى البداية .. وكل نطفة تمثل حياة

الإنسان مكتوب عليها بشفرة غاية فى الدقة كل حياته . . عمره وطوله وكل الأحداث التى تقع عليه . . ذكر أم أنثى . . شقى أو سعيد إلى غير ذلك .

ولو أننا عرفنا مفتاح هذه الشفرة ثم أخذناها ووضعناها فى كمبيوتر يحل ألغازها ، لوجدنا أمامنا فى دقائق شكل إنسان وجنسه وقصة حياته كاملة . . وإذا كانت هذه الحقيقة العلمية قد بدأت تظهر لنا الآن . . فإنها موجودة منذ خلق آدم . . ولكن الله سبحانه وتعالى لم يشأ أن يكشف بعض أسرارها إلا فى هذا الزمن .

هذه النطفة المختارة بدقة متناهية . . . هى التى تنطلق وتدخل الرحم وتخصب البويضة فيحدث الحمل . . وتظل الشفرة تعطى ما سُجِّلَ عليها حتى يأتى الأجل فتتوقف .



السجل لا يضيع

هذا هو السجل الذى لا ينمحى ولا يضيع أبدا ولا تطمس معالمه ، وعندما يبعث الله الناس يوم القيامة . . يقول الله لهذه النطفة « كن » . . فتفك الشفرة وتحقق ما هو مكتوب عليها . . ليأتى الإنسان هو هو بنفسه . .

إن الله سبحانه وتعالى يلفتنا إلى أن البعث إعادة للخلق وليس خلقا جديدا . . فيقول جل جلاله :

﴿ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَـٰعِلِينَ ﴾

(من الآية ١٠٤ سورة الأنبياء)

ويقول سبحانه :

﴿ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ ۖ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴾

(من الآية ٥١ سورة الإسراء)

يقول الله سبحانه وتعالى لهذه النطف الموجودة فى الأرض أن تعود خلقا كما كانت فتعود . . والفرق الوحيد هو الزمن . . ذلك لأنه فى الآخرة لا زمن . . إن ما حدث فى الحياة الدنيا فى

ثلاثين أو أربعين أو خمسين سنة . . أو أكثر أو أقل . . سيتم فى لحظة . . هذا هو الاختلاف الوحيد . . أما ماعدا ذلك فإن البعث هو إعادة لخلق كان موجودا . . ورغم تشابه الإنسانية من حيث الشكل والتركيب والخصائص ، فإنك لن تجد متشابهين ولن يتطابق اثنان فى كل شىء منذ آدم وحتى تقوم الساعة . . رغم أننا نكاد أن نكون نسخاً مكررة .

فالله سبحانه وتعالى رحمة بعقولنا . . أعطانا الدليل على ذلك فى أشياء كثيرة . . مثلا بصمة الأصبع . . فرغم أن أيدينا جميعا متشابهة . . فإن بصمة كل واحد منا تختلف عن بصمة الآخر ، بل إن هذا الاختلاف يظهر بين أصابع اليد الواحدة !! وأعتقد أن هذه حقيقة لا يختلف فيها أحد . وعلم دنيوى تظهر عجائبه مع مرور الزمن . فللقرآن فى كل زمن عطاء . ولم يحدث هذا مصادفة . . لأن الله تبارك وتعالى لفتنا إليه فى القرآن الكريم فى قوله تعالى :

﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ۝ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ ﴾

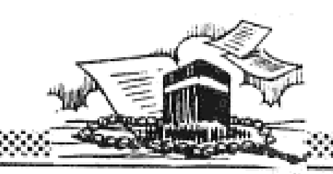
(سورة القيامة)

أى أن قدرة الله تبارك وتعالى . . لا تقف عند إعادة العظام التى تبلى وتصير ترابا . . بل تتعالى قدرته سبحانه إلى اعادة الأنامل وتسوية البصمة التى تميز الإنسان عن الآخر . . منذ عهد آدم إلى يوم القيامة . .

ولقد أثبت العلم الحديث ـ الذى يكشفه الله لنا ـ أنه كما للأصابع بصمة ، فللجسد بصمة أيضا . بصمة « رائحة » تميزه عن سائر جنسه ، يستدل عليها الكلب البوليسى الذى يمتاز بحاسة الشم الدقيقة .. وللإنسان أيضا بصمة صوت وبصمة أسنان وغير ذلك .. بل إن كل جسد له شفرة خاصة .. تعرفها كل أعضاء الجسد .. بحيث لا يختلط جسد مع جسد آخر أبدا .

إننا نلاحظ ذلك فى عمليات زرع الأعضاء وزرع الجلد .. الجسد يعرف أعضاءه ويعرف جلده .. فإذا أصيب الإنسان بجرح .. تجد أن الجلد يلتحم مع بعضه البعض وينسج النسيج الذى يقضى على هذا الجرح ويعيد الالتئام .. كذلك إذا أصيب أى عضو من أعضاء الجسم بميكروب يتحد الجسم كله ويحارب هذا الميكروب ليقضى عليه .. فإذا جئنا بعضو أو جلد من شخص آخر .. فماذا نرى ؟! نجد أن الجسد يعرفه ويعرف أن هذا العضو ليس منه .. غريب عنه فيحاربه ويطرده حتى ولو كان هذا العضو أو الجلد من أخ له . أو ابن أو ابنة .. أى من أصل واحد .. وهذا يدلنا على أن لكل جسد شفرة مختلفة عن الآخر ..

ولعل أطباء جراحة زرع الأعضاء هم أكثر الناس علما بهذه الحقيقة .. وهم يشاهدون كل يوم جسد أم يرفض كلية إبنتها .. وأب لا يتقبل جسده زراعة جلد ابنه .. إذن ليست المسألة هى درجة القرابة أو الأصل .. ولكن كل جسد له شفرة لا تتفق مع جسد آخر .. صنع الله الذى أتقن كل شىء .



البعث .. بالدليل المادى

أمام هذه الأدلة كلها التى تقرب إلى العقل أن كل إنسان صورة غير مكررة من الآخر .. وأنه يمتاز بأشياء تخصه وحده .. وأن هذه الأشياء مكتوبة بشفرة خاصة على النطفة التى هى البداية فى أن يأتى الإنسان من عالم الذر أو الموت إلى الحياة الدنيا ليمارس مهمته .. نعلم تماما أن إعادة الخلق أسهل من بدايته .. وإن كان لا يوجد سهل ولا صعب على المولى جل جلاله .. لأنه يقول للشىء كن فيكون .. ولكننا نقول ذلك باعتبار أن اعادة الموجود أيسر ـ بالنسبة لنا ـ من إيجاده أولا .. فالله سبحانه وتعالى يقول فى القرآن الكريم ليقرب المعنى إلى أذهاننا نحن :

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾

(من الآية ٢٧ سورة الروم)

إن الانتقال من مرحلة إلى مرحلة .. فى رحلتنا إلى الحياة الأبدية لا يتم إلا بقدرة الله سبحانه وتعالى وحدها .. وحين نخرج من قبورنا فليست هذه هى الحياة الآخرة .. أنها خروج إلى يوم الحساب .. يوم يبعث الناس جميعا .. من قبورهم التى دفنوا فيها .. ويخرجون كما قلنا بكلمة « كن » للنطفة .. فكما كانت النطفة فى عالم الذر تحيط بها مظاهر الموت . حتى أذن الله لها بالمجىء « بكن » فبدأت الحياة فيها لتنفذ ما هو

مكتوب عليها . . من حمل إلى ميلاد إلى طفولة . . إلى بلوغ للعمر المقدر إلى موت . . فكذلك ساعة البعث عندما يقال للنطفة « كن » . . يبدأ الناس يخرجون من قبورهم لكن . . كيف سيخرجون ؟

هل سيظل الإنسان يحاول الخروج . . ويدفع التراب الذى فوقه ليخرج ؟ أبدا . . إن الأرض ستنشق له بأمر الله . . واقرأ قوله سبحانه :

﴿ يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴾

(سورة ق)

ولماذا أسماه الله سبحانه وتعالى حشرا ؟ لأن كل من دفن فى الأرض سيخرج منها ، رغم أنهم لم يدفنوا مرة واحدة . . بل دفنوا عبر قرون كثيرة وتناثرت أجزاؤهم فى أماكن متباعدة بعد أن تحولت إلى تراب . . ولكنهم سيخرجون مرة واحدة . . فتضيق بهم الأرض . . سماه الله سبحانه وتعالى يوم الحشر . . لأن الزحام سيكون شديدا .

ولك أن تتصور أرضا كمصر مثلا . . استقبلت أمواتا عبر قرون كثيرة . . ثم إذا بهؤلاء جميعا يخرجون مرة واحدة . . زحام شديد ويوم رهيب .

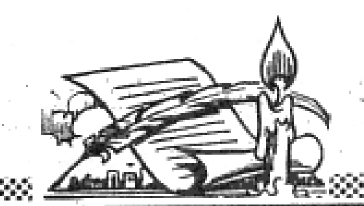
ولقد سألنى واحد وأنا فى أمريكا . . أين تذهب الروح بعد الموت ؟ فقلت له حيث كانت قبل أن تأتى إلى الحياة . . وسألنى

آخر كيف يتم تسجيل كل أحداث الكون ؟ قلت أنها ليست مسجلة فقط . . بل مكتوبة عند الله سبحانه وتعالى قبل أن تقع . . وهذا دليل على القدرة الإلهية وعلى إحاطة علم الله . . فكل عمل وكل حدث يتم وفق تسجيل الله له . . واقرأ قوله تعالى :

﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ (٢٢)

(سورة الحديد)

ويبلغ من دقة التسجيل أن عين القتيل تسجل فى حدقتها صورة القاتل . . ولو أننا استطعنا أن نصل إلى حدقة المقتول لرأينا صورة القاتل . . كل شيء مسجل وعليه دليل . . والله سبحانه وتعالى قبل أن يخلق الحياة خلق الموت . . وعندما يولد الإنسان ينطلق ملك الموت يبحث عنه . . وعمر الإنسان بقدر بحث ملك الموت عنه . . فعندما يلتقينا يكون الأجل .



الحق سبحانه وتعالى .. جعل فى الحياة الآخرة أشياء كثيرة .. وإن كانت غيبا عنا .. وإذا كانت الجنة فيها ما لا عين رأت ولا إذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، فإنه من الصعب أن نأتى بالألفاظ التى تصف لنا الحياة فى الجنة .. ذلك أن الصورة يجب أن تكون موجودة أولا فى العقل .. ثم بعد ذلك يختار لها اللفظ المناسب لها الدال عليها .. فقبل أن يخترع التليفزيون مثلا .. لم يكن لفظ التليفزيون موجودا فى أى لغة من لغات العالم .. فلما وجد التليفزيون وأصبح حقيقة .. اجتمعت المجامع اللغوية الموجودة وإختارت له اللفظ المناسب .

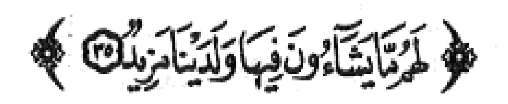
إن الله تبارك وتعالى حين يعطينا وصفا عن الحياة فى الجنة يقول : « مَثَلُ الحياة » .. أى أنها ليست هى .. ولكنه (مَثَل) يقربها إلى الذهن بشىء معروف .. وأنت حين تريد أن يعلم الذهن شيئا مجهولا ، فإنك تشبهه بشىء معلوم لكى يفهم السامع .. كأن تحاول أن تعرف أى إنسان عن كروية الأرض .. فتأتى له بخريطة الأرض مرسومة على كرة .. وتقول له أن الأرض مثل هذه الكرة ..

وحين يدخل أصحاب الجنة ـ الجنة ـ ستتشابه عليهم الأشياء ... فيخيل إليهم أنها تشبه الذى رزقنا من قبل فى الحياة الدنيا .. ولكنه فى الحقيقة غيره .. لذلك يأمرهم الله

سبحانه وتعالى أن يأكلوه . . فيجدوه غير الذى عرفوه فى الدنيا تماما . . ولذلك فإن كل الوصف الذى يعطيه الله سبحانه وتعالى للحياة فى الجنة هو محاولة لتقريب المعنى إلى العقل الإنسانى ليتخيل الصورة التى ستكون عليها . . ويكفى أنك تعرف أنه بمجرد ورود الشيء على خاطرك تجده أمامك . . وهذا ما لا يمكن لأحد أن يحققه فى الدنيا .

وكنت مرة فى زيارة للولايات المتحدة الأمريكية . . وأخذونى إلى فندق ينزل فيه الملوك . . وأرادوا أن يبهرونى بالتقدم العلمى . . كل شيء معد فى الحجرة . . تضغط على زر يأتيك فنجان القهوة . . وعلى زر آخر يأتيك فنجان الشاى أو الطعام أو غير ذلك . . وسألونى ما رأيك ؟ قلت إذا كانت هذه الفخامة كلها هى ما أعده البشر للبشر . . فكيف بما أعده رب البشر للبشر .

أن الشيء فى الجنة يخطر على بال الإنسان فيجده أمامه . . وكل ما يتمناه البشر موجود . . والله عنده أكثر من كل ما تستطيع العقول أن تتمنى . . ولذلك يقول الحق سبحانه :



(سورة ق)

أى أن الله سبحانه وتعالى . . يعطى الإنسان فى الجنة كل ما يشتهيه ، وما يمكن أن يدركه عقله . . ثم يكون هناك أكثر وأكثر . . ويكفى سعادة ومتعة أن نرى الله يوم القيامة . .

فتلك هى النعمة الكبرى . . التى يحصل عليها أى إنسان فى هذا الكون . . وعندما يرى الإنسان الله . . فأنه لا يريد نعيما ولا يشتهى شيئا أكثر من أنس النظر إلى الله سبحانه وتعالى . . ولذلك يقول الحق جل جلاله فى القرآن الكريم :

﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ ﴾

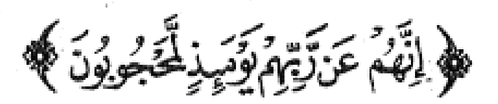
(سورة القيامة)

وأكبر ما يمكن أن يقع على الإنسان يوم القيامة من عقاب هو انه لا يرى الله ولا ينظر الله إليه ولا يكلمه . . تلك عقوبة كبرى لا يعرفها إلا أولئك الذين فى الدرك الأسفل من النار . . لذلك يقول الحق تبارك وتعالى عن أهل النار :

﴿ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾

(من الآية ٧٧ سورة آل عمران)

ويقول جل جلاله :


﴿ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴾

(من الآية ١٥ سورة المطففين)

إننا لابد أن نفهم أن الحياة فى الجنة أو فى النار . . سيتغير فيها تكوين الجسد . . بحيث ينتقل من الفناء إلى الأبدية . . وبحيث يلائم الجسد ظروف الحياة التى يعيشها . . فأهل الجنة يتغير تكوين أجسادهم لتلائم الحياة فى الجنة . . فيرون الله

ويحدثهم ويسمعونه . . وأهل النار ـ والعياذ بالله ـ كلما احترقت جلودهم . . تبدلت لتعود إليها الحياة . . حتى يحسوا بالعذاب والألم لأن أعصاب الحس موجودة تحت الجلد مباشرة . . كما كشف العلم أخيرا . . ولذلك يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٦﴾ ﴾

(سورة النساء)

وهكذا نرى أننا سنكون فى خلق جديد . . ليعطينا الله تبارك وتعالى ثمرات ما عملناه فى الدنيا . . وليعطينا الحياة الأبدية التى تليق بذلك الإنسان الذى كرمه الله سبحانه وتعالى . . وخلق كل هذا الكون من أجله . . تلك هى الحياة التى يريدها لنا الله . . أما أهل النار ـ والعياذ بالله ـ فأنهم تمتعوا فى الحياة الدنيا قليلا . . وأخذوا فى الحياة الآخرة خلود العذاب . . لقد خسروا أنفسهم بعصيانهم الله سبحانه وتعالى . . خسروا حياتهم الحقيقية التى أعدها الله جل جلاله لهم .

إلى هنا ونصل إلى خاتمة هذا الحديث . . لعل الله سبحانه وتعالى أن يكون قد وفقنى لما يحبه ويرضاه . . وأسأله سبحانه أن يكون هذا الكتاب هدى لكل من يقرؤه . . وطريقا إلى الحياة الحقيقية فى الجنة . . إنه سميع مجيب الدعاء .

الفهرست

الفصل الخامس

الفصل السادس

رقم الايداع : ٩١/٥٣٥٤

J.S.B.N

977 - 08 - 0137 - 2